لائحة القومي العربي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 97

01 شباط 2025

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

محتويات العدد 97 من مجلة طلقة تنوير:

- هل دُفن المشروع القومي في دمشق يوم 2024/12/8؟ / إبراهيم علوش.....2
- غزة وجنوب لبنان: انتصار وعودة وصراع لا حياد فيه / كريمة الروبي.....7
- الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية: الوجه الناعم للسياسات الإمبريالية الأمريكية/إبراهيم حرشاوي.....10
- عروبة الإسلام وإسلام العروبة – الجزء الثاني / محمد خالد عمر.....13
- مملكة باشان المتخيلة: نظرة نقدية في علم الآثار التوراتي / فارس سعادة.....19
- هل انتهى المشروع القومي؟ ملاحظات لإعادة بناء المشروع / بشار شخاترة.....24
- كلمات مشرقية عُرُوبيَّة مقارنة بأخرى بربرية / سعيد بن عبد الله الدارودي.....26
- الصفحة الثقافية: مستقبل الدراما في سورية "الجديدة" / طالب جميل.....30
- قصيدة العدد: هنا باقون/ موسى شعيب.....32
- رسوم العدد 1: "سوريا الجديدة".....35
- رسوم العدد 2: غزة.....39

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

هل دُفن المشروع القومي في دمشق يوم 2024/12/8؟

إبراهيم علوش

مع انهيار الدولة السورية التي تربع على حكمها حزب البعث العربي الاشتراكي منذ عام 1963، نتيجة حصارٍ قاسٍ توج بانقلاب تواطأ في إنجاحه من يفترض أنه حليف روسي أو صديق رسمي عربي، ناهيك بالاحتلالات الواضحة التركية والأمريكية والصهيونية، سارع البعض إلى إعلان وفاة المشروع القومي العربي باعتبار أن دمشق حكمتها آخر الأنظمة التي تبنت خطاباً قومياً عروبياً صريحاً على مدى عقود، وباعتبار أن الرئيس بشار الأسد كان آخر الحكام العرب الذين رفعوا العنوان القومي بوضوح.

سبق ذلك طبعاً إطاحة النظام الناصري في مصر، في انقلاب داخلي مدعوم خارجياً، وإطاحة حكم البعث في العراق في غزو عسكري خارجي، وإطاحة النظام الجماهيري في ليبيا بمزيج من التدخل العسكري الخارجي والثورة المضادة.

كما أن ما جرى في سورية عشية 2024/12/8 ترافق مع ضعف الأحزاب والتنظيمات القومية، وتبدد قواعدها الجماهيرية، ومع تخلي معظم النخب عن الخيار القومي، وتوجه بعضها إلى تسخيفه.

ينطبق ذلك على سورية ذاتها، إذ إن حزب البعث راح يتوجه قُطرياً، حتى في الخطاب والشعار والبرنامج. فالمشروع القومي سقط عملياً من برنامج الحزب قبل سنواتٍ طوال من سقوط الحزب عن سدة الحكم. أما الدولة السورية فراحت تعيد صياغة مقاربتها عربياً باتجاه الأنظمة، بدلاً من الشعب العربي وقواه الحية، وخصوصاً مع تبلور العلاقة الخاصة مع النظام الإماراتي.

سيأتي وقتٌ لمراجعة تجربة الأحزاب والشخصيات القومية التي حكمت دولاً قُطرية في العقود الفائتة، وما أنجزته، وما أخفقت في إنجازه، وطنياً وقومياً، وما كان يجب أو لا يجب أن تفعله. لكنّ مثل ذلك النقد والتقييم، لا بد من أن ينطلق من اعتبارات قومية، أي من منظور المصلحة العليا للأمة العربية في الشروط الراهنة لتاريخنا المعاصر.

لا بد من نقدٍ لتلك التجارب إذاً من زاوية الضرورة التاريخية، أي من زاوية الوعي القومي، لا من زاوية ليبرالية متغربة، كمن يجعلون قصة "الإنسان الفرد" والديموقراطية "أم القضايا"، قافزين من فوق الشروط التاريخية لتحقيق الديموقراطية، ولا من زاوية الما بعد حداثيين الذين يرفضون "السرديات الكبرى" برمتها، ومنها "سردية" الأمة والدولة-الأمة والوحدة القومية، ولا من زاوية إنكار وجود أمة عربية، كبعض الإسلاميين واليساريين، الذين يعدون أي حديث عن مشروع قومي "تفريقاً لوحدة المسلمين"، أو "قفزاً من فوق شروط الصراع الطبقي".

فإذا انطلقنا من تحقق شروط وجود أمة عربية، لغةً وثقافةً وتاريخاً وأرضاً ومصلحة، وبأن تلك المصلحة، تتجلى أكثر ما تتجلى، في أن المنظومة القُطرية، منظومة التجزئة التي أسسها الاستعمار الأوروبي، عاجزة بنيوياً عن حل أهم مشكلتين تواجهان أي أمة في الجنوب العالمي في العصر الحديث، وهما الأمن القومي والتنمية الاقتصادية، وإذا انطلقنا من أن الأمة العربية معرضة لخطر التهميش والزوال في ظل تمدد مشاريع عديدة عالمية وإقليمية، عدوة أو صديقة، تعد الوطن العربي، أو أجزاء واسعة منه، حقل نفوذ لها، فإن ذلك يعني أن المشروع القومي، أي تحقيق الوحدة والتحرير والنهضة، يصبح ضرورةً حيويةً للأمة العربية، وأن اجتراح أدوات تحقيقه يصبح ضرورةً حيويةً بدوره.

فإن لم تنجح تلك الأدوات في تحقيق المشروع سابقاً، فإن ذلك يعني أن علينا أن نتعلم من فشلها وأن نطوّرها، أو أن نصنع غيرها بصورةٍ أفضل، إذ ينسى البعض أحياناً أن المشروع القومي، كضرورة تاريخية للأمة العربية، هو الداعي لتأسيس أحزاب وتنظيمات وتيارات وجيوش قومية، وليست الأحزاب والشخصيات القومية هي التي اقتضى "تبرير وجودها" الحديث عن مشروع قومي لا يعود ثمة مبرر للحديث عنه لولا وجودها في الحكم.

فإذا فشلت هذه التجربة القومية أو تلك، وإذا ارتقت هذه الشخصية القومية أو تلك، أو أطيح بها، أو انحرفت عن المبدأ، فإن ذلك لا يعني مطلقاً بأن الأهداف التي قامت تلك التجربة من أجل تحقيقها أهدافٌ خاطئة. وما ينطبق هنا على المشروع القومي ينطبق بالمقدار ذاته على مشروع التحرر الوطني من الاحتلال، فهو لا يسقط، كضرورة تاريخية، بسقوط هذا التنظيم أو ذاك، أو هذه الشخصية الوطنية أو تلك، أو باستشهادها أو تحييدها من المشهد، أو بانحرافها سياسياً.

في هذا الزمن تحديداً الذي يتجلى فيه المشروع الصهيوني على صورة نزعة إمبراطورية، في شكل "شرق أوسط جديد أو كبير" يتربع الكيان الصهيوني على رأسه، يتضح بأن أكثر من يدرك فوائد تعبئة الموارد العربية في كتلة واحدة تحت لوائه هو ذلك الكيان. وهو لن يسمح بالتالي بأن تتحد تلك الكتلة تحت يافطة عربية، أي يافطة عربية، لأن ذلك سيخرجه من المعادلة، بل يريد أن يفككها إلى شذرات متنافرة متناحرة يرتبط كلٌ منها معه وحده بعلاقة تبعية. لذلك، يستمر بإضعاف كل الدول العربية، حتى لو كان نظامُ أيٍ منها مطبعاً وخاضعاً للهيمنة الغربية، ويستمر حثيثاً بالعمل على تغيير هوية المنطقة من عربية إلى "شرق أوسطية".

ولا يرى الكيان الصهيوني نفسه قاعدة للهيمنة الغربية فحسب، ولا ترى الحركة الصهيونية العالمية ذاتها درعاً عالمياً للكيان الصهيوني فحسب، بل ترى الكيان الصهيوني موطئ قدمٍ لها، والعالم الغربي حقلاً لنفوذها، والنخب الغربية الحاكمة حليفاً من موقع الندية توظفه ويوظفها.

وتسعى الحركة الصهيونية العالمية، فضلاً عن ذلك، إلى مد نفوذها عبر الوطن العربي بالتعاون مع الغرب، وإلى التغلغل بصورة أكبر في روسيا والصين والهند ودول بريكس عموماً، وإلى اختراق كل قوة كامنة أو كائنة، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، يمكن أن تكون مؤثرة سياسياً، مع سعيها المستمر إلى تسليط سيفي "معاداة السامية" و"إنكار المحرقة" على رقاب كل من يناهض نفوذها، غرباً وشرقاً، وشمالاً وجنوباً.

هذا يعني أن صراعنا مع الحركة الصهيونية لا يتعلق بفلسطين والأراضي السورية واللبنانية المحتلة فقط، وأن مواجهة المشروع الصهيوني الذي يحشد موارد دولية وإقليمية ضخمة من خلفه، ناهيك بالهيمنة الغربية أو المشروع الطوراني، لا يمكن أن يستند إلى موارد قُطرية في معارك تقتصر على كل قُطر عربي على حدة، يحدد عدونا مكانها وزمانها، حتى يأتي دور القُطر التالي.

كانت إحدى أهم مشاكل التنظيمات والأحزاب القومية التي وصلت إلى السلطة في أقطار عربية بعينها أنها تقولبت بقالبٍ قُطري، فخضعت لمعادلات التجزئة القُطرية، ولا يعود ذلك إلى خللٍ فيها بالضرورة، بل لأن المنظومة القُطرية صممت كي تنتج مثل تلك النتيجة ميكانيكياً، أي أن مشكلة الأنظمة القومية الأولى هي أنها تقوقعت قُطرياً، فحكمتها الاعتبارات القُطرية، ففشلت حتى قُطرياً، ولا يعني ذلك طبعاً أن الأنظمة التابعة المطبعة نجحت قُطرياً أو قومياً أو ديموقراطياً أو على أي صعيد آخر.

وما ينطبق هنا على التنظيمات والشخصيات القومية التي وصلت إلى الحكم هنا ينطبق بالمقدار ذاته على التنظيمات والشخصيات القومية التي لم تصل الحكم لكنها تقوقعت قُطرياً، وسمحت للاعتبارات القُطرية أن تحكم عقليتها وبرنامجها وعملها السياسي، ففقدت جوهرها ومبرر وجودها.

لقد أثبتت تجربة سورية مجدداً، كما أثبتت تجربة العراق وليبيا من قبلُ، وتجربة محمد علي باشا في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بأن فكرة الإقليم-القاعدة الذي تنطلق منه الوحدة العربية، كما انطلقت الوحدة الألمانية مثلاً من مقاطعة

بروسيا في القرن التاسع عشر، هي فكرة فاشلة في الحالة العربية في الظروف الراهنة التي تعيشها أمتنا. وهي نقطة سبق تثبيتها في كتاب "مشروعنا: نحو حركة جديدة للنهوض القومي" (2009)، الفصل الثاني، ص: 93-96، أي أنها نقطة أعادت تجربة حصار سورية وتقويض الدولة السورية تأكيدها، ولم يجرِ التوصل إليها مؤخراً.

فالدولة القُطرية، بصفتها دولة تنتمي إلى الجنوب العالمي، لا تمتلك الموارد والإمكانات كي تخوض تجربة التنمية الاقتصادية وخوض الحروب الكبيرة في آنٍ واحد، وهي ستتعرض فور وصول قوى قومية مقاوِمة إلى سدة الحكم فيها إلى سلسلة يومية من المعارك والمؤامرات والاختراقات والتخريب والحصار وإلى سلسلة دورية من الحروب المباشرة.

وكل ما تبنيه تلك الدولة من مشاريع اقتصادية كبيرة على مدى سنوات وعقود يظل معرضاً للقصف والدمار في غضون أيام عندما تبدأ الحروب المباشرة، أو على مدى سنوات أطول عندما يمتد الحصار. كما أن ما تخوضه تلك الدولة من معارك شرسة سوف يتحمل عبئها الثقيل شعبها واقتصادها بالنيابة عن الأمة العربية برمتها، في ظل ميزان قوى غير متكافئ على الإطلاق مع قوى الهيمنة الخارجية وأدواتها الداخلية، الأمر الذي يفسح مجالاً كبيراً للتشكيك بجدوى تلك المعارك من جراء تكاليفها الباهظة أرواحاً ودماءً وحصاراً ودماراً.

وبمقدار ما نجحت الأنظمة القومية الحاكمة في تحقيق إنجازات قومية فإن ذلك اعتمد على تفعيل قوى الشعب العربي داخل القُطر الذي تحكمه وخارجه، أي اعتمد على قدرتها على خوض المعركة بشروط وأدوات قومية، من دون التقيد بحدود التجزئة القُطرية، والأمثلة لا تعد ولا تحصى، من الدعم الناصري للثورة الجزائرية، إلى تحرير جنوب اليمن، إلى الدعم السوري للمقاومة اللبنانية والفلسطينية، إلخ... والأهم، إلى الحراك الجماهيري ذي الطابع القومي الذي كان يهز الأنظمة المناهضة للمشروع القومي هزاً ويقض مضجعها.

إن الخضوع لمعادلات التجزئة القُطرية انتحار قومي، أما التمرد على تلك المعادلات فيتيح للتيار القومي العربي أن يؤدي أدواراً أبعد بكثير من الدائرة العربية، إسلامياً وإفريقياً، وحتى أممياً، كما في حركة عدم الانحياز. وينسحب الأمر نفسه على محور المقاومة الذي لا يعني شيئاً من دون تجاوز "الحدود" القُطرية.

كانت إحدى أهم مشاكل النظام الناصري في مصر أنه لم يستند إلى تنظيم قومي متماسك ومتجذر في الأرض، وأنه لم يؤطر المد الشعبي الواسع الذي حظي به تنظيمياً ليتحول إلى حركة شعبية عربية منظمة تعيش بعد مؤسسيها.

وكانت إحدى أهم مشاكل سورية الأسد هي فقدان حزب البعث جماهيريته ودوره القيادي ورسالته وبوصلته القومية وروحه الكفاحية، في حين أن ذلك الحزب لعب دوراً رئيساً في الدفاع عن الدولة السورية بين عامي 1976-1983.

مرة أخرى، ليس هذا موضع تقييم كل مسيرة الأحزاب القومية في الحكم أو خارجه، وإنما هي محاولة لإعادة فتح النقاش بشأن طبيعة العمل القومي الذي نحتاجه بعد انقضاء ربع قرن تقريباً من القرن الـ21، في ظروفٍ انتقلت فيها التجزئة من تفكيك الأمة العربية إلى دول قُطرية، إلى الشروع بتفكيك تلك الدويلات جغرافياً واجتماعياً بمشاريع تقسيم جديدة، وبعد اتضاح عبثية تقوقع القوى القومية في قُطر عربي واحد بانتظار أن تتبعها بقية الأمة من تلقاء ذاتها.

العبرة بإنشاء حركة شعبية عربية منظمة، عابرة للأقطار، لا مركزية، غير مقيدة باعتبارات سلطوية أو قُطرية، ولا حتى باعتبارات حزبية أو أيديولوجية ضيقة، بل يمكن أن تستوعب كل مواطن عربي، في الوطن العربي أو المهجر، بغض النظر عن خلفيته الطائفية أو العرقية أو المناطقية أو القُطرية، على مستويين:

أ – مستوى الشبكات الواسعة ذات النقطة الواحدة، مثل دعم المقاومة، أو مناهضة التطبيع، أو مقاطعة المنتجات الداعمة للعدو الصهيوني، أو أي قضية أخرى قديمة أو مستجدة ذات بُعد قومي.

ب – مستوى الحلقات الأضيق، ذات البعد النخبوي أو الشعبي، من أجل إعادة إحياء المشروع القومي ضمن برامج أطول مدىً بهدف إنشاء جبهة قومية متحدة، تضم الأحزاب والمستقلين والهيئات والجمعيات والشخصيات المدركة لأهمية تحقيق المشروع القومي والمستعدة للعمل من أجله.

وللمزيد بشأن المشروع القومي، الرجاء مراجعة محور "نحو حركة شعبية عربية منظمة" في العدد 91 من مجلة "طلقة تنوير" (2024/1/1).

نعيش اليوم ظاهرتين منتصرتين تلخصان قوة الكتلة الشعبية المنظمة أو شبه المنظمة، وهما عودة أهل جنوب لبنان إلى قراهم ومدنهم رغماً عن أنف الاحتلال الصهيوني، وعودة أهل شمالي غزة إليها بعد أن ظن الاحتلال أنه طردهم منها إلى الأبد، وأنه مهد لاستيطانها أو جعلها "منطقة عازلة" على الأقل.

في الحالتين، تظهر قوة الفعل الشعبي القائم على حراك شعبي تؤطره مقاومة منظمة وتحركه فكرة يعتنقها. تخيلوا إذاً مشروعاً قومياً تلك أدواته، على الأقل ريثما يستتب له الأمر في بضعة أقطار عربية وفي حركة شعبية واسعة خارج تلك الأقطار.

إن مشروعاً قومياً من هذا النوع، قادرٌ على التعاون مع أي جهة أو شخص بما يخدم الأهداف القومية الكبرى، من دون أن يحتكم لظروف وتقلبات تلك الجهة أو ذلك الشخص، مرنٌ بما فيه الكفاية كي يوظف كل مورد ممكن في تحقيق مشروعه، متمددٌ ومنتشرٌ بما فيه الكفاية كي لا يخضع لحسابات أي قُطر أو حزب أو شخص بمفرده، موجودٌ خارج السلطة بما فيه الكفاية كي لا تتحمل مسؤولية أعماله، ومؤثرٌ فيها بما فيه الكفاية كي لا تتحول تلك السلطة إلى سلاح ضده، ومنفتحٌ بما فيه الكفاية كي يستوعب التعددية ضمن حدود الثوابت، لا يمكن إلا أن يكون منتصراً إن عاجلاً أو آجلاً.

إن الكتلة الشعبية المنظمة المدركة لذاتها، والقادرة على التحرك ككتلة، والتي تنجح فيها العناصر الأكثر وعياً وديناميكية في ربط الجزء بالكل، الشأن المعيشي بقضية الوحدة الاقتصادية العربية، والشأن الوطني بقضية التحرر والوحدة القوميين، والشأن الاجتماعي بقضية النهضة العربية، هي وحدها القادرة على نقل أمتنا من حالة الوعي الموضعي المقاوِم، كحالة دفاعية، إلى حالة الهجوم العام من خلال بناء مشروع قومي جذري ينسف كل ما هو كائن ويقيم محله بناءً جديداً.

وما دمنا نفتقد إلى تلك الأداة، سنبقى رهناً لأجندات أخرى، معادية أو صديقة، لكنها ليست أجنداتنا في أي حالٍ من الأحوال. والحليف حليف وعلى الرأس والعين، وقد نتقاطع معه كثيراً أو قليلاً، لكنه سيجدنا عبئاً عليه ما دمنا ننتظر منه المدد والخطة والتوجيه، ويتوجب علينا بالتالي أن ننصرف إلى بناء مشروعنا، مشروع النهوض القومي العربي من خلال قوى الشعب المنظم.

غزة وجنوب لبنان: انتصار وعودة وصراع لا حياد فيه

كريمة الروبي

"لست مهزوماً ما دمت تقاوم" .. مهدي عامل

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

ملكيّون هم أكثر من الملك؛ أحزان واتهامات متبادلة واستقالات داخل كيان الاحتلال لفشله في معركة طوفان الأقصى، بينما نجد بيننا من يرى العدو منتصراً، فيحددون معاني الانتصار والهزيمة وفقاً لأعداد الضحايا والمباني المدمرة، وليس بتحقيق الهدف من المعركة.

حدد العدو عدة أهداف منذ بداية المعركة. وفي سبيل تحقيقها شن حرب إبادة غير مسبوقة على أهل غزة، وكان على رأس قائمة هذه الأهداف القضاء على المقاومة وإعادة احتلال غزة واستعادة الأسرى بالقوة بلا صفقات تبادل، ولم يحقق أياً من هذه الأهداف. وقد شاهدنا جميعًا المقاومة وهي تستعرض قوتها وتثبت وجودها خلال مراسم تسليم الأسرى، وهو ما يؤكد فشل العدو في القضاء عليها كأحد أهم أهدافه من المعركة. كما أن العدو اضطر للخضوع لشروط المقاومة في انسحابه من غزة والقبول بصفقة لتبادل الأسرى، فمن المهزوم ومن المنتصر إذاً؟

لا نقلل أبداً من حجم المعاناة التي عاشها سكان غزة ولكنها ضريبة الحرية، فلا يوجد في التاريخ شعب تحرر من دون أن يقدم التضحيات، وأولئك الذين قدموا تلك التضحيات خرجوا فرحين مهللين فور الإعلان عن اتفاق الهدنة، ليس احتفالاً ببقائهم أحياء، كما يزعم بعض الانهزاميين، وإلا لما شاهدنا التفافهم حول أبطال المقاومة واستقبالهم بالأحضان، وكانوا حملوهم مسؤولية ما عانوه خلال خمسة عشر شهراً من الإبادة والتشريد والتجويع. لو كانوا يحتفلون ببقائهم أحياء فقط، فهل كانوا سيحتفلون هكذا لو حقق العدو أهدافه بالقضاء على المقاومة واحتلال غزة واستعادة أسراه بالقوة؟ إنهم يحتفلون ببقائهم أحياء، نعم، فهي غريزة بشرية، ولكنهم يحتفلون أيضاً بانتصار إرادتهم وبقاء مقاومتهم تدافع عنهم وعن عزتهم وكرامتهم وأرضهم.

لا شك في أن المقاومة سواء في غزة أو لبنان قد تعرضت لضربات قوية وموجعة واستشهد قادتها، وعلى رأسهم سيد شهداء المقاومة السيد حسن نصر الله، وهي الخسارة التي لا يمكن تعويضها، فقد كان رقماً صعباً في الصراع، وسبب استشهاده صدمة كبيرة لدى جمهور محور المقاومة، وكذلك استشهاد قائد ومخطط معركة طوفان الأقصى الشهيد يحيى السنوار، كما أنها فقدت أهم حلفائها بسقوط الدولة السورية في يد عملاء أمريكا والكيان من أبناء تيار الإسلام المعد داخل أجهزة المخابرات على الطريقة الأمريكية، وليس إسلام محمد، لكنّ المقاومة ما زالت باقية وتنتصر وتفرض شروطها، ومجرد بقائها رغم كل تلك الحروب والمؤامرات لهو انتصار في حد ذاته.

أما مشاهد العودة إلى شمال غزة وجنوب لبنان، فإنها تثبت بلا أدنى شك بأننا لا يمكن إلا أن نكون منتصرين طالما أن شعبنا العربي الحر يأبى إلا أن يعود إلى أرضه، ولو كانت مدمرة لا حياة فيها كشمال غزة، وطالما أنه مستعدٌ لدفع حياته ثمناً للرجوع إليها، كما في جنوب لبنان الذي استقبل أهله رصاص العدو بصدورهم في طريق عودتهم لديارهم. إنها مشاهد كفيلة بإسقاط كل الصفقات والمؤامرات والمخططات الساعية للتهجير والتي أعلن عنها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب بتهجير سكان غزة إلى مصر وسكان الضفة الغربية إلى الأردن.

وخيراً فعل ترامب حين أعلن عن خطته ومطالبته مصر والأردن بالموافقة على المقترح، فقد جاء ذلك كفرصة للتأكيد على أن الصراع ليس فلسطينياً فقط، بل هي معركة مصير أمة مرتبط ببقاء المقاومة؛ الضامن الوحيد لإفشال مخططات العدو التي لا ولن تنتهي إلا بزواله. فكل الرهانات السابقة بشأن إمكانية حل القضية بالطرق السلمية – وهي في الحقيقة حلولٌ استسلامية- يؤكد العدو في كل مرة أنها رهانات خاطئة وحلم التوسع لن يكون على حساب الفلسطينيين فقط، مما يذهب بهذا الصراع المصيري إلى مرحلة لا وجود للحياد فيها، فإما الرضوخ والفناء وإما المقاومة والبقاء.

في كل الأحوال، فإننا نؤمن أن صراعنا مع العدو صراع وجود، ولا انتصار كامل بدون زوال الكيان، ولا هزيمة نهائية طالما بقيت المقاومة، إنها سلسلة من المعارك لا سبيل سوى خوضها، قد ننتصر في بعضها وننهزم في أخرى، لكننا لا نفقد إيماننا بحتمية المقاومة حتى تحقيق النصر الكبير بزوال الكيان، وهذا ما تعلمناه من رمز العروبة والمقاومة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذي قال: "لسنا نقاتل إسرائيل من أجل أرض وراء أو أمام خط الهدنة، لسنا نقاتلها من أجل مدن أو صحارى، لسنا نقاتلها من أجل مكاسب إقليمية، إنما نخوض ضدها معركة مصير غايتها أن تزول دولة إسرائيل. وفي سبيل هذا قد نخسر بعض الأرض وقد نسترد بعضها، وقد نتقهقر وقد نتقدم، ولكن لن يكون التقهقر هزيمة والتقدم لن يكون انتصاراً، لأن الهزيمة أن تبقى دولة إسرائيل ولو رمزاً في قرية، والنصر أن تزول دولة إسرائيل".

وفي النهاية، فإن المقاومة نهج الأحرار، الذين ينتمون لها مهما كان وضعها، قوية كانت أم ضعيفة، منتصرة كانت أم مهزومة، لا يصطفون معها لأنها منتصرة بل يصطفون معها لكي تنتصر.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية: الوجه الناعم للسياسات الإمبريالية الأمريكية

إبراهيم حرشاوي

تأسست الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في عام 1961 بغرض توسيع الآليات والمقاربات المستخدمة أمريكياً لمنع المد الشيوعي والوطني المستقل في دول العالم الثالث. كما أنها سعت إلى فتح ممرات استثمارية لرأس المال الأمريكي بعد إحداث تحولات "إصلاحية" في الدول المستهدفة. ومنذ نشأتها، كانت هذه الوكالة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأجهزة الأمنية الأمريكية، حيث تبنت بين سنة 1962-1974 برنامجاً حكومياً أمريكياً تحت مسمى "مكتب السلامة العامة"، وهو البرنامج الذي قدم التدريب والمساعدة والمعدات لقوات الأمن والمليشيات التابعة لحلفاء الإمبريالية الأمريكية في دول الجنوب. وبالرغم من "انتهاء" هذا البرنامج الحكومي استمرت العلاقة بين الوكالة والمنظومة الأمنية الأمريكية، إذ عين – على سبيل المثال- الرئيس الأسبق بارك أوباما في سنة 2015 جايل سميث، مديرة مجلس الأمن القومي بالبيت الأبيض، مديرة للوكالة.

تعود فكرة تأسيس "مكتب السلامة العامة" إلى قناعات الرئيس الأمريكي الأسبق ج. ف. كنيدي المؤيد لنظرية بلورة البرامج التنموية الدولية كوسيلة بديلة لمكافحة الشيوعية والتوجه الوطني الاستقلالي. وقد استحسن الرئيس كنيدي مقترحات مستشار الأمن القومي روبرت دبليو كومر مساعدة الشرطة وجعلها الجسم الأساسي لمكافحة النضال الثوري. واعتبر كومر الشرطة "أكثر قيمة من القوات الخاصة في جهود أمريكا العالمية لمكافحة التمرد"، وأكثر فعالية من حيث التكلفة، لأنها لا تحتاج إلى المعدات والأسلحة باهظة الثمن التي تحتاجها القوات العسكرية، كما وصفها بأنها أكثر نجاحاً كإجراء وقائي من أي برنامج آخر، حيث توفر "خط الدفاع الأول ضد المظاهرات وأعمال الشغب والتمردات المحلية".

وفي سياق ترجمة هذه المقاربة إلى سياسة أمريكية ملموسة، تجدر الإشارة إلى ما قدمه رمز الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في أوروغواي، دان ميتروني، من دورات أمنية في السبعينيات حول "فن الاستجواب المعقد" وكيفية تعذيب المعتقلين، باستخدام الرجال والنساء المشردين كفئران تجارب بشرية. ويروي فيلم "حالة حصار" للمخرج اليوناني كوستا غافرس هذه الحقبة المظلمة التي مرّت منها الأوروغواي ، إذ تعرض الفيلم إلى انتقادات كبيرة في الولايات متحدة فور صدوره، ووصل الأمر إلى إلغاء العرض الذي كان مقرراً للفيلم بمهرجان سينمائي في شهر نيسان / أبريل سنة 1973، من قبل مدير "معهد الفيلم الأمريكي" وقتها جورج ستيفنز.

وشمل نشاط الوكالة أمريكا اللاتينية برمتها، حيث كانت الوكالة نشيطة بالتوازي مع ما يعرف بـ"عملية كوندور" التي أطلقتها دول بأمريكا الجنوبية التابعة لسياسة واشنطن وتحت رعاية مباشرة من الإستخبارات الأمريكية للقضاء على التيارات اليسارية. وضمن هذا التوجه الإمبريالي تورّطت الوكالة، إلى جانب القبعات الخضراء (القوات الخاصة الأمريكية)، في تعذيب وقتل وخطف الآلاف من الرجال والنساء اليساريين، وتدريب الآلاف من أفراد الشرطة والميليشيات الإجرامية.

أما في فنزويلا فنفذت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بين عامي 2004 و2006 عمليات استخباراتية مختلفة بعدما تبرعت بمبلغ 15 مليون دولار لعشرات المنظمات "المدنية"، بهدف تحقيق استراتيجية سفير واشنطن السابق لدى فنزويلا ويليام براونفيلد، القائمة على إحداث شرخ في صفوف أنصار الرئيس الراحل هوغو تشافيز. لم يكن وجود الوكالة مرخصاً من طرف الدولة الفنزويلية، مما يدل على انتهاكات واضحة للسيادة الوطنية والمنهج البلطجي الذي تتبناه الولايات المتحدة في تدخلاتها في دول العالم. كان برنامج "مكتب المبادرة الانتقالية" التابع للوكالة يعمل كوكالة سرية في العاصمة كاراكاس، حيث كانت تضخ الأموال بشكل غير قانوني لتمويل أعمال تمردية ضد الحكومة. ونتيجة لهذا الانتهاك المستمر للسيادة الفنزويلية، أصدر البرلمان الفنزويلي قانوناً في أواخر ديسمبر/ كانون الأول سنة 2010 يحظر التمويل الأجنبي للأنشطة السياسية. وسرعان ما أغلقت الوكالة أبوابها ونقلت عملياتها الاستخباراتية في فنزويلا إلى ميامي، التي أصبحت الآن مركزاً للأنشطة المناهضة للثورة البوليفارية.

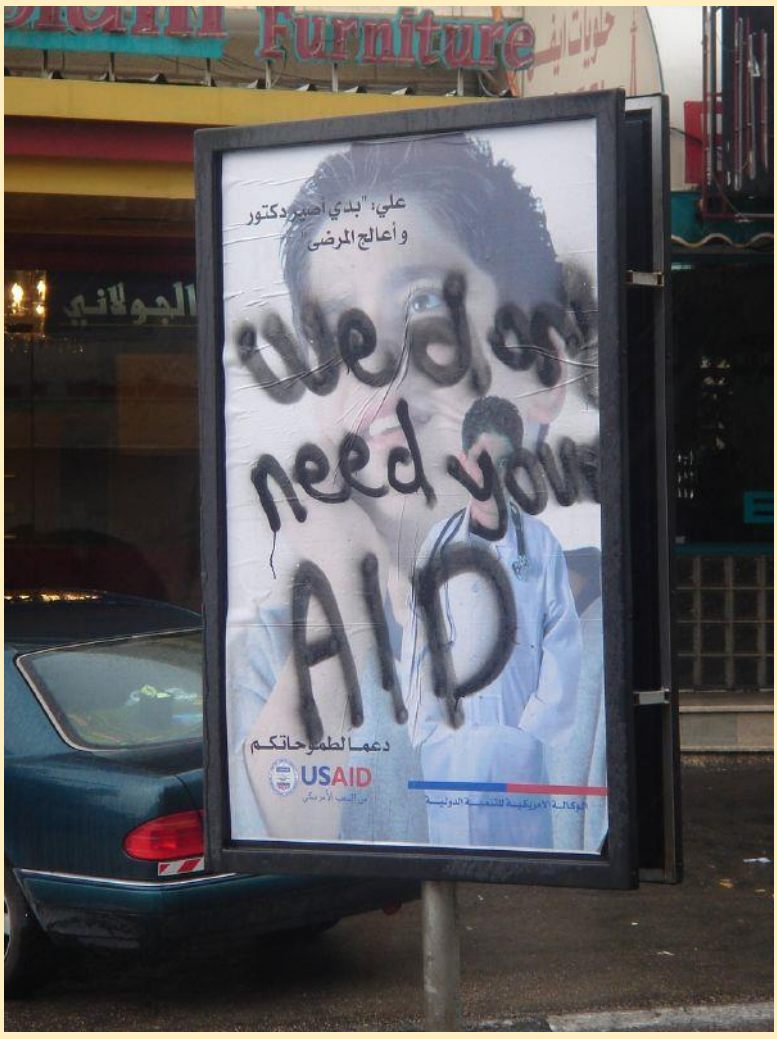

لم يقتصر دور الوكالة في صد المد اليساري فحسب، بل شاركت في برامج إجرامية يندى لها الجبين ففي البيرو على سبيل المثال، تبرعت الوكالة بمبلغ 35 مليون دولار في التسعينيات لنظام الرئيس ألبرت فوجيموري، التي أغرقت إجراءاته الاقتصادية البلاد في البؤس، مع سعيه الحد من الفقراء بدلاً من الفقر: فقد قام برنامج "تنظيم الأسرة" بتعقيم أزيد من 200 امرأة من الأصليين قسراً. وكانت من بين الوكالات التي شاركت في حملة التعقيم القسري في البيرو صندوق الأمم المتحدة للسكن ومؤسسة نيبون اليابانية غير الحكومية.

أما في الوطن العربي، فتساهم الوكالة مساهمة محورية في تمرير سياسة تفكيك هياكل الدول الوطنية وتمرير ثقافة الأمركة والعولمة لدى شرائح واسعة من الشعب، من الطبقة المتعلمة إلى الطبقة الكادحة، الأمر الذي يؤدي تلقائياً إلى طمس الهوية القومية والإنتماء الوطني. فالوكلات الغربية التي تخترق الدول تحت عنوان "التنمية" تسعى في الحقيقة إلى إضعاف أو بالأحرى القضاء على مؤسسات الدولة المضيفة عن طريق إنشاء شبكات وكيانات موازية، ناهيك عن تعزيز الخصخصة لصالح شركات متعددة الجنسيات، علماً أن مصلحة البورجوازية الأمريكية تكمن في تقويض أي محاولة للاكتفاء الذاتي بالبلدان الساعية للاستقلال السياسي والاقتصادي.

ففي الحالة السورية مثلاً، يلاحظ الإنفاق السخي الأمريكي في المناطق التي كانت تسيطر عليها الجماعات الإرهابية قبل إسقاط الدولة، حيث أنفقت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية ومكتب المساعدات الإنسانية التابع لوزارة الخارجية أكثر من 18 مليار دولار على "المساعدات الإنسانية" في سورية، أو للدول المضيفة للاجئين السوريين، وأكثر من 1.2 مليار دولار في السنة المالية 2024 وحدها، موظفةً شركاء من المنظمات غير الحكومية (القبعات البيضاء نموذجاً) لتكريس البنية التحتية للإرهاب وتحديداً "حكومة الإنقاذ" في إدلب. ومن الواضح أن الولايات المتحدة منحت "هيئة تحرير الشام" فرصة لالتقاط الأنفاس في إدلب وإنشاء دويلة، بينما كانت الحكومة السورية تنهار ببطء نتيجة العقوبات الاقتصادية، أي بفرض عقاب جماعي على أولئك الذين يعيشون في المناطق التي تسيطر عليها الدولة بحرمانهم من الضروريات مثل الغذاء والوقود.

وفي خضم الحديث عن الدور الأمريكي في سيرورة إسقاط الدولة السورية، ينبغي أيضاً لفت الانتباه بشأن مهمة ووظيفة "المنظمة السورية للطوارئ" التي كانت منذ فترة طويلة في طليعة مشروع "تغيير النظام"، بتمويل مباشر من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. وقد كانت هي من رافقت ميدانياً السيناتور الجمهوري الراحل جون ماكين في زيارته إلى سورية سنة 2013، التي مولها موردخاي موتي كاهانا، المليونير "الإسرائيلي"، من خلال منظمته غير الحكومية "أماليا"، بالإضافة إلى دور "المنظمة" المحوري في صياغة عقوبات قيصر التي أدت إلى سقوط المدنيين السوريين في براثن الفقر.

أما ماكين فقد أكد في سيرته الذاتية، "الموجة المضطربة"، على دور "المنظمة" في ربط كبار المسؤولين الأمريكيين بالمسلحين في سورية. وقبل انخراطه في خطة شن هجوم عسكري أمريكي على وطنه، كان المدير التنفيذي لـ" المنظمة السورية للطوارئ"، مصطفى معاذ، مستشاراً للمجلس الوطني الانتقالي الليبي خلال الفترة التي سبقت غزو خلف الناتو العسكري لليبيا بقيادة الولايات المتحدة. ولتأكيد أهمية دور هذه المنظمات في المساهمة في تحقيق الأجندة الإمبريالية، تكفي الإشارة إلى اللقاء الذي جمع بين المدير التنفيذي للمنظمة، بمستشار الأمن القومي الأمريكي جيك سوليفان لمناقشة الإنجاز المهم للولايات المتحدة بعد يوم واحد فقط من الإطاحة بالدولة السورية.

يأخذنا السياق السوري بالضرورة إلى السياق الفلسطيني المجاور، حيث ارتبط تاريخ وجود الوكالة الأمريكية للتنمية بالضفة الغربية وقطاع غزة بإنشاء السلطة الفلسطينية عقب توقيع اتفاقية أوسلو. ويندرج توجه الوكالة على المستوى الفلسطيني انطلاقاً من مبدأ تعزيز "حل الدولتين"، أي وضع أرضية تطبيعية شاملة للوصول إلى هذا "الحل". وتعتمد الوكالة في عملها داخل فلسطين المحتلة على الفحص الأمني الدقيق للتأكد من الخلفية الأمنية للشركاء وعدم ارتباط الأفراد والمؤسسات التي تستفيد مالياً مع أي طرف فلسطيني مقاوم، إذ تتم عملية الفحص عن طريق قواعد بيانات عامة واستخباراتية. وهذا يعني بالضرورة تحييد التموقع الوطني لدى الفلسطينيين العاملين على المشاريع الأمريكية بتوظيفهم مباشرة في السياسات المعادية للتحرير والرامية للتطبيع الكامل والشامل.

تعمل الوكالة ضمن برنامجها 2021-2024 في عديد من القطاعات والعناوين الوهمية كالانتعاش الاقتصادي والشباب والديمقراطية وبناء السلام وحل النزاعات إلى ما هنالك. ويتجلى التطبيع عبر آليات مختلفة، مع توفير مبلغ بقيمة 250 دولار لبرامج بناء "السلام" وحل "النزاعات". ومن المعلوم أن الوكالة تدير برنامجين للتطبيع، برنامج صغير يشمل التطبيع عبر المدارس والمستشفيات، والثاني كبير يأطره صندوق "نيتا لوي لشراكة الشرق الأوسط من أجل السلام". ومن بين المبادرات التي يتم الترويج لها هي "الشراكة من الناس إلى الناس من أجل السلام"، لكنها لم تكتسح الساحة الفلسطينية نظراً لقلة المؤسسات الفلسطينية التي تقدمت للتمويل، وهو مؤشر قوي على انتشار مبدأ مناهضة التطبيع لدى شرائح واسعة من الشعب الفلسطيني.

توجد، زيادة على ذلك، مبادرة " بناء جسور اقتصادية إقليمية"، وهو في الحقيقة برنامج تبلغ تكلفته 87 مليون دولار، وتنفذه شركة كيمونكس، بهدف التغلب على الحواجز بين القطاعين الخاصين الفلسطيني والصهيوني وتعزيز فرص البحوث

الاقتصادية والتطبيقية المشتركة. فهو برنامج يسعى في نهاية المطاف إلى تطبيع العلاقات بين رجال الأعمال والمقاولين الفلسطينيين مع الاحتلال الصهيوني، كما فعلت بعض الشركات التكنولوجية الفلسطينية التي عملت على تطوير البرمجيات، كأسلحة للاحتلال، بعقود من الباطن. وتكمن خطورة التعاون التكنولوجي والمعلوماتي في تقويض أمن المعلومات للمجتمع الفلسطيني بترك المجال مفتوحاً للاحتلال للحصول على بيانات المستخدم الفلسطيني ومراقبة اتصالاته. وتختلف طبيعة علاقات شركات تكنولوجيا المعلومات الفلسطينية مع البنية التكنولوجية الصهيونية، إذ يرى كثيرون أن أخطر أنواع التطبيع هو التطبيع الذي يحصل عبر شركات البرمجيات التطبيقية القائمة على التعاقد من الباطن. ولا يعلم المبرمج الفلسطيني بالضرورة إن كان ما يقدمه من أعمال تطبيعية سيخدم جيش الاحتلال أم لا، فهو لا يقوم إلا بتنفيذ التعليمات التي تأتي من الشركة الصهيونية الأم.

ويبقى المطلوب هو العمل على عزل كافة المشاريع للمؤسسات المانحة سواء كانت أمريكية أم أوروبية أم أممية عن طريق المقاطعة، ونشر الوعي في صفوف المجتمع الفلسطيني والعربي والجنوبي العالمي حول خطورة هذه الأطراف الإمبريالية على تحقيق التنمية المستقلة وقطع الأواصر مع التبعية. وتبين التجربة مع الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية أنها بالرغم من شكلها "الإغاثي" و"الإنساني" و"التنموي" تبقى متوافقة في كل صغيرة وكبيرة مع استراتيجية السياسة الأمريكية، فهي بمثابة الوجه البريء للإمبريالية ووحشيتها تجاه الشعوب المستضعفة.

عروبة الإسلام وإسلام العروبة – الجزء الثاني

محمد خالد عمر

مشروع الأمّة

قبل أن أبدأ في مقترح مشروع الأمة دعوني أشير إلى أمرين. **الأول:** إنّ ما أقترحه هو بذرة مشروع ليس كاملاً؛ بل هو بحاجة إلى عقول كثيرة تتشارك في صياغته كعقد اجتماعي. **الثاني:** أرجوكم أن تفرّقوا بين مشروع الأمة الكلّي الشامل الاستراتيجي، وبين مشاريع الأحزاب السياسية التي ينبغي أن ندرك جميعاً أنها مشاريع تكتيكية ينبغي أن تسعى لتحقيق المشروع النهضوي الاستراتيجي، الذي يُبنى على أعمدة ثلاثة. **العمود الأول:** أن يكون المشروع مقبولاً من غالبية مكوّنات الأمة، وألا يستثني أي قوة فيها. وهذا لا يتحقق في عرفنا إلا إذا قام بهمة الجميع "عرباً، ومسلمين" يستثمر شهامة العربي وقوة الدين. وأن ندرك أن الدين في أي مجتمع لا يمكن تجاهله، ولا يمكن محاربته أو القفز فوقه وأن يكون المشروع إيجابياً بانياً يحقق وجود الأمة، ويحافظ على هويتها. ولا يخضع للظروف أو أمزجة الساسة. **العمود الثاني:** ينبغي للمعنيين بصياغة المشروع الاسترشاد بوجهة سهام العدو، التي توجهت عبر كل الحقب التاريخية إما إلى ضرب الهوية

العربية بتهميشها أو تجزئتها وإمّا إلى تقزيم وتجهيل العربي والمسلم، وابتلاع أرضه معتمدة على حياكة المؤامرات، وبكل الوسائل، فمزقتنا شيعاً إثنيات، وأحيت لنا لغات مولّدة ليس لها جذور، ولا تمتلك مقومات اللغة، "كالأمازيغية"، كما صوّبت سهامها إلى دين الأمة لتفتيته، فأحدثت الفتن الطائفية، وفتّت الطوائف إلى مذاهب مسطحة فكرياً تقوم على روايات وخرافات وأساطير. وللأسف نجحوا في مهامهم، وولغت قوى الشرّ بدمائنا.

لمّا تفتّح الوعي العربي على أنّ (العربي المسلم، والمسلم العربي، والعربي المسيحي) قديماً شركاء في البناء والدفاع، وحصدت الأمم نتائج اجتهادهم في العلوم التطبيقية والتجريبية كالطب، والفيزياء، والهندسة، والفلك، والقانون وغيرها. أدركت بعض النخب العربية الجديدة ضرورة صياغة مشروع الأمة، على قواعد الارتكاز ذاتها. وقد أحسن البعث صياغة شعاره السياسي. "أمّة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"، هذا الشعار الذي ضم ثلاثة مرتكزات أساسية لبناء مشروع. مرتكز "هوية الأمة، رسالتها، وديمومتها بخلودها". كما جعل بعض النخب من فعل النبي الكريم في جمعه "الجماعات المتناحرة المتغالبة في مكة والمدينة، وجمع القبائل والعشائر المتقاتلة على الماء والكلأ، والممالك التابعة المؤتمرة بأوامر الخارج في العراق والشام واليمن. ونقلهم إلى مجتمع متضامن بالحب والإيثار منضبط بالأخلاق، انطلاقاً من قناعته أن لا عيب فيها سوى فرقة أبنائها، فكوّن أمّة مادتها العروبة وروحها ومشروعها الإسلام بمشعل واحد حمله وحملته من بعده أيدٍ صدقت في حمله، وأخلصت لمسيرة استقرارها واستمرارها.

وقد التقط الأستاذ ميشيل عفلق وهج هذا الفعل المحمدي، فأطلق مقولته الخالدة بكلمة ألقاها باحتفالية الوطن بذكرى المولد النبوي الشريف. حيث قال: ((جاء محمد بن عبد الله وكان كل العرب يوم كوّن لهم دولتهم وأمتهم، وعلى العرب اليوم أن يكونوا كلهم محمداً). بهذه العبارة المكثفة العميقة الواضحة استطاع قائلها قراءة الواقع ودراسة التاريخ، وهو يشهد أمامه تفرقة مثل تفرقة عرب الجاهلية واتّباعها الشرق والغرب والشمال فقد عدنا جماعات متناحرة، وسيطرت العشائرية على تفكير الجيل، فصرنا عشائر سياسية تابعة، وعشائر دينية مكفِّرة، وعشائر مذهبية متقاتلة، وعشائر إثنية منبوشة من التاريخ. لهذا وجب صياغة مشروع الراية التي توحّدنا، وتجمع قوانا، بتفاعل "العروبة والإسلام" فتحرّك قوى الأمة الكامنة، وتلتقي تحتها مناذرة اليوم مع غساسنته، وتخلّص الأمة مما لحق بها من أدران أساءت إلى مفهوم الهوية التي هي التمايز بين **ال نحن وبين الهو**.

جغرافية المشروع

في البدء كانت الأمة العربية لقد جهد كتّاب التاريخ المغرضون في السابق، وقرّاء الرقم اليوم تزويراً لفصل العرب عن العرب، واعتبار كل تسمية لمملكة، أو قبيلة عرقاً خاصاً، وذلك لتنفيذ هدف قديم جديد هو الهيمنة على هذه الأرض وإنسانها. تؤكد ذلك لغتهم وطريقة تفكيرهم، ولهجاتهم أو لغاتهم التي قدّمناها قبل سطور. وكمثال عن اللغات التي يتهمونها بأنها غير عربية سآتي بمثال واحد قصيدة إبلائية، إذ لا أظنّ أنّ من يقرأ هذه القصيدة من عرب اليوم لا يصله معناها الروحي السامي، ولا تتحرك روحه مع حروفها وكلماتها. إليكم نص القصيدة الإبلائية التي كتبها أجدُادنا في مملكة "إبلا" في 2500 ق.م.، بلغة عربية فصيحة وباللهجة الإبلائية. هذا النص وصل إلينا من أحد تلاميذ البحث الأثري. عن طريق مكتشف إبلا العالم الإيطالي باولو ماتيية.

من يقرأ ما كتب من نصوص في الإدارة والتجارة، والسياسة، ومعاهدات دبلوماسية، ونصوص أدبية لا يمكن إلا أن يشعر بحلاوة الكلمة، ومتعة التواصل مع لغة عمرها أكثر من أربعة آلاف عام، وما زالت حرارة الحميمية تشعرنا بغبطة القربى.

رُقُمْ من مملكة إبلا

هذا شكل الرُقُمْ الإبلائية، التي وصلت إلينا عن طريق مكتشف إبلا العالم الإيطالي "باولو ماتييه"، ومن يدقق في الأحرف المكتوبة لا يمكن إلا أن يربطها باللغة العربية الأم. إليكم النص الأقرب إلى الروح الصوفية كما وصل إلينا مقروءاً وقد وضعنا جمل النص بين هلالين:

(حيا يرأم اليرحم. اليرحم ابن عشتار). المعنى: نحيي يرأم بن عشتار الذي يرحمنا)

(ببخور المرّ يتجلّى). المعنى: يتجلّى لنا ونحن نتقرب بالبخور المر.

(البتولتان الحسناوتان استشفعتا). المعنى: الحسناوتان الطاهرتان طلبتا الشفاعة.

(وردتا الكرم وَصَدرتا)

(في كرم البخور المر طيب ودّك). (المعنى: ذهبتا إلى كرم البخور وعادتا ونشدتا طيب ودك.

(أخذتُ فاكِ ذا الرقِة).

(أخذتُ عينيكِ الزرقاوين)

(أخذتُ حِرَكَ ذا الثنية).

المعنى: لا تحتاج هذه الجمل إلى شرح. فهو يغازلها بقبل فمها الرقيق، ويسبح في عينيها الزرقاوين، فضلاً عن ضمها، وهي تميس بحركتها).

ويكفي أنّ أقدّم خارطة وصلت إلينا عن طريق هيرودوت المسمّى عندهم أبو التاريخ: وفي كتابه "التواريخ"، يذكر إيرودوتوس (هيرودوت) العربية ويحدّدُ جغرافيتها يقول: (العربية كمكان أو دولة موحّدة على ما يبدو تتمتّع بالقوّة الكافية للبقاء مستقلّة عن الإمبراطورية الأخمينية، وكان من عادة الكتّاب الإغريق إطلاق كلمة العربية على أيّ مكان يقيم فيه عرب. وبحسب نصوص إيرودوتوس، فإنّ العربية هي المساحة الجغرافية المحصورة ما بين أرمينيا، ودجلة، والخليج العربيّ، وبحر العرب، والبحر الأحمر، والنيل مروراً بالساحل الشرقي للبحر المتوسط حتى هضبة الأناضول التي كانت في الواقع عربية جغرافيا وكانت مكاناً معقّداً للغاية في زمن هيرودوت. وقد تحدّثت الناس عدّة لغات من أسرة واحدة عبر شبه الجزيرة، كمثل الآرامية، والعربية الشمالية القديمة، والعربية الجنوبية القديمة بالإضافة إلى الإغريقية التي كانت تُستخدم في

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

بعض مناطق أقصى الشمال)[1]. فقد تحدث بهذا اليوناني أسكيلوس –أسخيلوس قال حتى أنّ هيرودوت المسمى أبو التاريخ ضم الأراضي المصرية وسيناء، إلى أرض العرب ولم يقتصر على سكان شبه جزيرة العرب. وهو الأصح تاريخياً وواقعياً.

وهذا نص لعالم الآثار الفرنسي جاك جوزيف شامبليون يقول: (وهكذا كان العبرانيون هم عرب فلسطين أو يهودا، وهي ليست سوى جزء من سورية يقع بين العريش وصيدا وكان الفينيقيون هم عرب صور وصيدا من جبل لبنان إلى حلب؛ وكان البابليون هم عرب بلاد ما بين النهرين (البلد الواقع بين النهرين الفرات ودجلة) أو (آشور الواقعة بين بلاد فارس وأرمينيا ويسمون في اللغة العربية الحديثة العراق وديار بكر)[2] هذه المعلومات والوثائق التاريخية للشعوب التي قطنت وعمرت البلاد قبل الميلاد. وقبل التغلّب والتكالب وقبل التخاذل والشرذمة والتخلي من قبل بعض أبناء الأمة الذين يريدون أن يصنعوا لأنفسهم كيانات، ولو على الورق.

أمر آخر شاع لدى بعض الدارسين أنّ السومريين هم أول من اخترع الكتابة، وهذا كلام مجحف بحق أجدادنا الأكديين والإبلويين والماريين، حيث كان لهم جلّ الفضل في هذا الإبداع، الذي دلّت عليه الاكتشافات المتتابعة. يقول الباحث د. بسام جاموس في كتابه الجرف الأحمر: (إنّ الرسومات المكتشفة في الجرف الأحمر شكّلت أولى الكتابة التصويرية، ويرجع تاريخها الى الألف العاشرة قبل الميلاد، هذا ما يؤكده ميشيل بروز وفيليب تالون بقولهما: إنّ المحاولات الأولى لترجمة الفكر بالكتابة كانت في الجرف الأحمر في سوريا منذ الألف العاشرة قبل الميلاد)[3]. وفيما بعد ومنذ الألف الثالثة قبل الميلاد كانت اللغة الإبلائية الناضجة الواضحة فقد قرئ الرقم المحفوظ في مكتبة القصر الملكي في إبلا التي تقع إلى الشرق الجنوبي من مدينة إدلب، وتبعد عنها 17 كم. ونجد أعلاه مثالاً لغوياً إبلائياً عربياً مفهوماً لدينا نحن اليوم في القرن الواحد والعشرين، ولا يختلف في لفظه ومعناه عن اللفظ العربي شفاهياً، ولو اختلف في شكل تدوين الحرف.

أمة المشروع

لأنّ أمة المشروع منذ فجر التاريخ تقطن هذه البقعة الجغرافية بممالكها وإرثها الحضاري، فإن ذلك أخافهم، فبدأوا يحيكون المؤامرات ضد وحدتها، فأحدثوا تلك الدعوات الانفصالية "الفينيقية في بلاد الشام، والفرعونية في مصر، والأمازيغية في المغرب العربي".

ومع الأسف، وقع بعض العرب في الحُفَرَ التي حفرها لهم أعداء الأمة بشكل مباشر أو غير مباشر، فقاموا بطرحهم التفريقي، ويلتقون مع الصهيونية في شرذمتها للدول القطرية القائمة، التي جزأتها سايكس بيكو، عندما روّجت لطروحات سياسية عملت وتعمل عليها، كأمثال الأب ثيودورس الذي كتب مقالاً بعنوان لسنا عرباً ولله الحمد. السوري ليس عربياً والعراقي ليس عربياً والمصري ليس عربياً، ولا الأردني ولا الفلسطيني، ونحن روميون وسريان وكلدان وآشور وأقباط. نحن أحفاد بلاد الرافدين والفينيقيين والفراعنة، ونحن أهل الشرق وسكانه الأصليين. نحن لسنا عرباً، ويكفي اغتصاباً للتاريخ وللجغرافيا وللحقيقة وللواقع. أبناء العربية هم العرب – وللأمانة التاريخية نقول: إنّ ثمة بعض القبائل العربية صارت مسيحية، ولكن عروبة الأقلية لا تعمم على الأكثرية المشرقية التي لم تكن يوماً عربية. أجدادنا زرعوا الأرض وتأصلوا فيها فصاروا أبناء أصل. أمّا أنتم فرحّل لم تزرعوا ولم تتأصلوا. آباؤنا زرعوا الكرمة، وصنعوا الخمر، وأوجدوا الموسيقى ففرحوا ورقصوا، وبنوا

1 –مصدر المعلومات بحث بعنوان:Greek Administrative Loanwords in Nabataean Inscriptions ناشره الأستاذ.Juan Pedro Monferrer-Sala

2 - universal palaeography. جاك جوزيف شامبليون " 1778-1867م

3 – جاموس. الدكتور بسام. الجرف الأحمر. طباعة وزارة الثقافة السورية. دمشق. عام 2005م

حضارات كتبوا كتباً. أجدادكم شربوا الدم ولا يزالون، رقصوا على جثث بعضهم، وذبحوا بعضهم ولا يزالون، دمّروا الحضارات وأحرقوا الكتب ولا يزالون. لا في التاريخ القديم نشبهكم، ولا في التاريخ الحديث نشبهكم. تاريخنا ملاحم وعلم ومجد تاريخكم خيانة وحاضركم خيانة ومستقبلكم خيانة)[4].

هكذا يُظهِر هذا الأب المبجّل عنصريته الوقحة، ففي مقاله الآنف الذكر ينقل الأب ثيودورس الفكر العميق الاستراتيجي إلى عالم يتجاوز عالم السياسة السطحي التكتيكي المتحوّل، فيقلب معه عالمه، ويرسو في شاطئ عالم اللا أخلاق، بقصد النفاق والدجل. ويقرر أنّ العرب الذين اعتنقوا المسيحية انفصلوا عن انتمائهم، وصاروا من غير العرب، ومن بقي عربياً منهم فلا أصل له، ولا فصل. فهل يقبل المسيحيون العرب ممن يفتخرون بعروبتهم بما يطلقه هذا القس من موقف، غير انتمائي ويجر وراءه المسيحيين كلهم. هذا الأب إمّا أنّه تم توظيفه ليكون في صف أعداء الأمة أو أنّه لم يقرأ التاريخ، أو غاب عنه علم التاريخ، أو غيّب عنه علم الآثار الذي قدّم لنا أنّ كل الممالك التي قامت على الأرض العربية من أقصاها إلى أقصاها، ومنها الآكادية والكلدانية والبابلية والآشورية والإبلائية السريانية، والآرامية، والتدمرية، هي ممالك عربية اللغة والأرض والانتماء، وعربية الإرث اللغوي والقانوني والموسيقي.

لقد وصل إلينا مقالٌ كتبه الدكتور إبراهيم علوش يفنّد فيه التوظيف السياسي لفكرة الآرامية يحمل العنوان نفسه: "في التوظيف السياسي لفكرة الآرامية" يقول فيه: (نقلت وسائل إعلام مختلفة في أواسط شهر أيلول 2014م أن وزارة داخلية الاحتلال الصهيوني قررت الاعتراف بما أسمته "القومية الآرامية" في فلسطين المحتلة، وأنها ستبدأ، بناء على ذلك، بوضع وصف "آرامي" إلى جانب كلمة مسيحي في بطاقات هوية المواطنين المسيحيين في الأرض العربية الفلسطينية المحتلة عام 1948م. يتابع د. علوش فيقول: هذا الإجراء ليس بريئاً، فهو محاولة لسلخ العرب المسيحيين عن عروبتهم).

إنّ محاولة فصل العرب عن العرب، وتصوير جيش الفتح الإسلامي على أنّه الجيش العربي الوحيد، وإنّ ما قام به هو احتلال لأراضي الشعوب الأخرى مؤامرة اتفق عليها كل أصحاب الأطماع في المنطقة وصولاً إلى المغرب العربي الذي أغرقوه بغزو ثقافي تقوده فرنسا يحمل لواء الأمازيغية بوسائل قديمة وحديثة. فقد نقل إليّ الدكتور مختار عبد لاوي أنّ هناك 39 فضائية فرنسية تبث باللغة الفرنسية والأمازيغية موجهة للمغرب العربي، والمغرب هنا هو أقطاره الخمسة، علماً أننا بتوقفنا عند تاريخ ولادة هذه الدعوة فإن التاريخ لا يزيد عن سبعين عاماً، إذ تزامنت بدايتها مع قيام الكيان المسخ، كيان الصهيونية. وقد عالجنا هذه الدعوات باستفاضة كبيرة عن العرب قبل الإسلام، طال الممالك العربية القديمة وما سمي بالفترة الجاهلية. ثم أردفنا ذلك بفصلين تامّين من فصول كتابنا "عروبة الإسلام وإسلام العروبة" بعنوان: محاربة العروبة بسلاح الإسلام. ومحاربة الإسلام بسلاح العروبة. حاولنا الردّ البحثي والموضوعي والمنطقي على كل من حمل خنجره ليطعن هذه الأمة بعروبتها وإسلامها.

[4] - متوفر على الشابكة في موقع News.Net@work Swaida. Top. نشرها بتاريخ 2 حزيران 2017م وأخذته مواقع أخرى سعياً منها لتعميمه.

معني بحمل لواء المشروع؟

اتفقنا الآن أنّ مشروعنا المقترح في الأمة يقوم على عمودي "عروبة القيم، وإسلام الحب، والإيثار"، سداه العدل ولحمته النخوة ونصرة المظلوم والحفاظ على حقوق الناس وكراماتهم، وما حلف الفضول إلا تجسيد لروح البناء والأمان، وما وثيقة المدينة إلا أساس فعل الأخوّة في الحياة والمصير، وحفظ حقوق الناس وكرامتهم ووحدة المصير، والوقوف في وجه الظلم والظلمة والدفاع عن العرض والأرض يحتاج إلى قوة، والقوة تحتاج إلى إعداد إنسانها وأدواتها. ونحن وبالرغم من تراجع التيار القومي، وتدني جاذبيته في المجتمع، واعتبار المنتمي إليه في بعض الأقطار وكأنه مسبّة. وبالرغم من الإسلاموفوبيا واعتبار اعتناق الإسلام وكأنه لعنة إلا أننا نعتقد أنّ القوميين العرب هم المعنيون بحمل راية مشروع الأمة المقترح.

أختم موضوعي...

إنّ كلّ عمل أو نزعة تهدف إلى شيطنة العروبة، أو تشويه تاريخها أو تهميشها، أو تفتيتها، أو وضعها في مواجهة غيرها من الدعوات، أو محاولة وضعها في مواجهة الإسلام هو عمل عدائي لضرب جذور المعادل العربي للإسلام، وكل محاولة لضرب الإسلام أو تهميشه هو عمل لضرب العروبة، وتفتيت قواها بالمذهبية تارة، التي يطمع أهلها أن تحلّ محل الدين والهوية، ونحن نعتقد أنّ هذه الأمة لن تقوم لها قائمة إلا بوحدة قواها فالعربي يدافع عن أمته وارضها وإرثها. والمسلم فيها يدافع عن أمته ولغتها وتاريخها وحضارتها ويدافع عن إسلامه ومقدساته ولغة تعبده، كما نعتقد أنّ مفاهيم الأمة والهوية القلقة والانتماء ما كانت لتكون قلقة لولا فشل القوميين وفسادهم، وانحرافات رجال السلطة، وخيباتهم المتكررة. وأكثر من هذا لم يقبل الشعب حركات الإسلام السياسي إلا تعويضاً عن أمل ضائع، وتفاؤل باسترجاع كرامة مهدورة، وردعاً لفساد ساد حتى سدّ على الجيل المنافذ.

المراجع:

1. رياض نجيب الريس، المسيحيون العرب دراسات ومناقشات لأبحاث عربية، ط2، 1982م
2. محمد مهدي شمس الدين. محاضرة في المركز الثقافي في إدلب ربيع 1998م. نحفظ نسخة عنها في مكتبتنا الخاصة.
3. رياض نجيب الريس، المسيحيون العرب دراسات ومناقشات لأبحاث عربية، ط2، 1982م
4. رياض نجيب الريس، المسيحيون العرب دراسات ومناقشات لأبحاث عربية، المرجع السابق
5. المطران جورج خضر. مقالات. أفكار وآراء في الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك.
6. كامل بن حسين البابي الحلبي الشهير بالغزي. نهر الذهب في تاريخ حلب. دار القلم. حلب. ط2. ج3 ص 295
7. رياض نجيب الريس. المسيحيون العرب. المرجع السابق
8. النقري رائق. فقه المصالح. دار الأمل إربد الأردن ط1- 1999م صفحة 105
9. العودة إلى الذات، د. علي شريعتي، ترجمة إبراهيم الدسوقي. الزهراء للإعلام العربي. ط1986 ص 51 ــ 52
10. فيليب حتي. الإسلام منهج حياة. دار العلم للملايين بيرو 1983م صفحة 108
11. د. علي شريعتي. العودة إلى الذات. المرجع السابق
12. محمد خالد عمر. عروبة الإسلام وإسلام العروبة. دار النمير دمشق. ودار الرواد بيروت 1998م، ص 49.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

مملكة باشان المتخيلة: نظرة نقدية في علم الآثار التوراتي

فارس سعادة

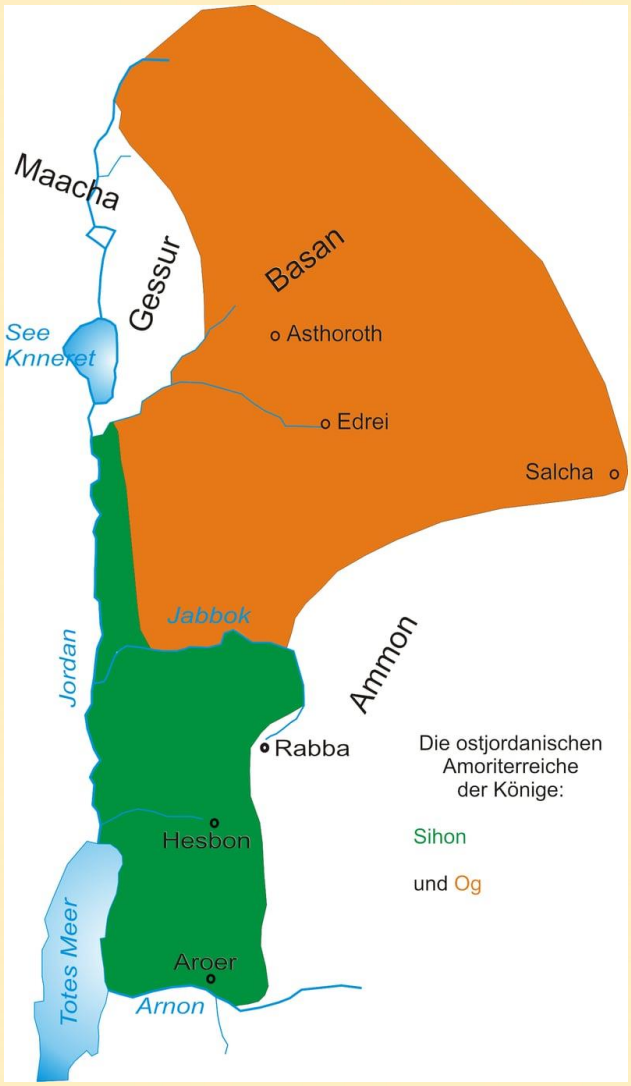

ظهر كتاب التوراة وشروحه وتفاسيره في الشرق والغرب كأداة لتفسير وفهم تاريخ مناطق غرب آسيا بشكل عام والمشرق العربي بشكل خاص، فكان الاهتمام الغربي المسيحي بهذا الكتاب أقرب إلى الهوس منه إلى الإيمان فأصبح دليلاً للحجاج المسيحيين ومن ثم الرحالة وصولاً إلى المستشرقين منذ القرن التاسع عشر وصولاً إلى يومنا هذا، وإن أصبحنا نقول علماء آثار لا مستشرقين في تغطية اصطلاحية لمصطلح الاستشراق السيء حقيقةً في دلالته الدراسية والبحثية، بل والعملية "الممارِسة" أيضاً، لا الأيديولوجية فحسب.

فرضت التوراة نفسها كشارح ومفسر لتاريخ المنطقة، وأصبحت ترجمان الماضي ومرآة الشخصية العربية القديمة، وساردة الحكايا حول "الشرق" وفلسطين ومصر وما حولهما، فما تحمله من قصص تفصيلية ووصفية يعيدك إلى الخلف آلاف السنين في سرديات خيالية خرافية تحولت عبر أقلام الرحالة ورجال الدين والعلماء إلى حقائق لا يمكنك جدالها في كثير من الأماكن وأمام كثير من "العقول".

ومن هذه القصص أو السرديات قصة ما يسمى مملكة "باشان" التوراتية، ونقصد بالتوراتية أنها ذكرت في التوراة حصراً ولم يرد ذكر لها خارج التوراة بالشكل الذي وصفت فيه، أو حتى بأقل منه، فذكرها تكرر أكثر من ستين مرة في التوراة، بالرغم من عدم ذكرها في تاريخ ومدونات المنطقة القديمة، هذا بالرغم من المكانة المهمة والعالية لهذه المملكة بحسب التوراة، أو العهد القديم كما يحب أن يسميه البعض.

تقع مملكة باشان المتخيلة في مرتفعات الجولان وتمتد إلى أجزاء من جنوب سورية وشمال الأردن وتشمل مدينة درعا وأجزاء من حوض اليرموك ومناطق البادية في السويداء السورية، أي أن موقعها الجغرافي استراتيجي ومشرف على الكثير من الموارد الزراعية والمائية. وقد اشتهرت بحسب التوراة بأرضها الخصبة أيضاً، وكأرض يحكمها "العماليق" الكنعانيين الأقوياء تحت حكم الملك "عوج" القوي الذي ينام على سرير من حديد، وبالتالي كانت أحد ألد الأعداء لبني إسرائيل الضعفاء آنذاك، بحسب عهدهم القديم.

باشان في النصوص التوراتية والسياق التاريخي والجغرافي

ذكرت باشان في التوراة مراراً وتكراراً، وخاصةً في سياق غزو الإسرائيليين لأرض كنعان. وقد عرضت النصوص المختلفة باشان كرمز للقوة والغنى والخصوبة، كما صورت أهلها كعماليق وأقوياء بالإضافة إلى الجانب اللاهوتي والأيديولوجي لهذه القصص من خلال تصوير انتصار الإسرائيليين على باشان كأنه جاء بتدخل إلهي مما يعزز العهد الإلهي لهم من خلال ربهم يهوه. أما أهم هذه المواقع في التوراة فهي:

- **تثنية 1:3-11 :** تصف هزيمة الملك عوج ملك باشان على يد الإسرائيليين، مع التأكيد على أنه كان آخر الرفائيين (عرق من العمالقة).
- **عدد 21:33-35:** تسرد المعركة بين الإسرائيليين وعوج، مع تسليط الضوء على المساعدة الإلهية التي ضمنت انتصار إسرائيل.
- **يشوع 12:4-5 :** تذكر باشان كجزء من الأراضي التي غزاها موسى وتم تخصيصها لسبط منسى.
- **مزمور 68:15-16 :** تحتفي شعرياً بجبال باشان كرموز للقوة والنعمة الإلهية.

بالنظر إلى الموقع الاستراتيجي لهذه المملكة، حيث يمر نهر اليرموك من الجنوب وجبل حرمون من الشمال ووادي الأردن من الغرب والبادية السورية من الشرق، وامتلاكها لأتربة بركانية خصبة مما جعلها مركزاً زراعياً حقيقياً، قبل وبعد "الزمن التوراتي"، وصولاً إلى يومنا هذا، إضافة إلى وجود غابات البلوط ومناطق زراعة الحبوب والأقماح، وإشرافها على أهم الطرق التجارية التاريخية في المنطقة، كل هذا عزز من قيمتها الاستراتيجية في نظر الجميع.

تاريخياً، بالنظر إلى الموقع الجغرافي، بعيداً عن كل القصص التوراتية، كانت منطقة باشان جزءاً من المشهد الثقافي والسياسي الأوسع في "الشرق القديم". تأثرت بالقوى المجاورة مثل الآراميين والآشوريين، ولاحقاً الكلدان أو البابليين، ومن ثم الفرس. وبحسب السياق التاريخي والزمني التوراتي فقط، وضعت باشان في سياق العصر البرونزي المتأخر (1550-1200) قبل الميلاد، ومن ثم العصر الحديدي الأول أو المبكر (1200-1000) قبل الميلاد، وهي فترات تميزت بالنفوذ المصري والحثي، ومن ثم تراجع هذا النفوذ لصالح صعود الممالك الصغيرة وظهور الحكم المحلي في مناطق متفرقة من بلاد الشام التاريخية.

باشان التاريخية "وإسرائيل الحديثة"

لم يطلق اسم سهم باشان على العملية العسكرية الصهيونية ضد الجمهورية العربية السورية بشكل عشوائي أو رومانسي. تعتبر باشان جزءاً لا يتجزأ من "إسرائيل الكبرى"، ومن التاريخ الديني والثقافي ليس للدين اليهودي، بل "للقومية اليهودية"، أي الصهيونية، وبالتالي هي أحد أعمدة البناء الرئيسية في "الهوية الوطنية" الصهيونية، وتمثل رمز القوة الإلهية والغزو الذي

يعتقد أنه منح لشعب "إسرائيل" كجزء من أرض الميعاد. هذه الروايات تستخدم كذريعة لتأكيد شرعية الكيان التاريخية والدينية ليس فقط للمغتصبين في الكيان، بل في خارجه لكل الإنجيليين في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكل يهود العالم، ومن يتعاطف معهم خصوصاً من المتدينين المسيحيين الكاثوليك. ويكمن الخطر الأكبر في شمول باشان المتخيلة مرتفعات الجولان وجزءاً من وادي الأردن، وتزامن عملية جيش الاحتلال في سورية مع وصول ترامب إلى السلطة في واشنطن. ويمكن أيضاً ربطها بمشاريع "الترانسفير" في الضفة وغزة، بحسب الدكتور إبراهيم علوش.

بالنسبة للعقلية الصهيونية المتطرفة، يميناً ويساراً، تستخدم باشان كذريعة للسيطرة على الأرض في مرتفعات الجولان والضفة الغربية المحتلين، والأردن المهدد الآن. فمرتفعات الجولان المحتلة منذ العام 1967، والتي ضمت بشكل أحادي الجانب عام 1981 للكيان، تشكل جزءاً رئيسياً من هذه المملكة المتخيلة، وبالتالي فإن إطلاق هذه التسمية على العملية العسكرية يطرح تساؤلات حول الطموحات المستقبلية لقادة هذا الكيان وإمكانية الاستمرار في الحرب واحتلال المزيد من الأراضي ليس في سورية فقط، بل وفي الأردن.

وهذا تهديد إضافي يضاف إلى كل التهديدات الوجودية لأهل الضفة المحتلة بأن الضفة جزء من يهودا والسامرة وهي غير بعيدة عن سيطرة الكيان ورؤيته المستقبلية، ففي كثير من خطابات القادة الصهاينة يتم الاستشهاد بالنصوص التوراتية التي تتحدث عن غزو الإسرائيليين القدماء للأراضي الكنعانية في الضفة الغربية الآن!

أما الأردن الذي يقع الآن في خطر كبير بسبب سيطرة الكيان على الكثير من مصادر المياه الرئيسية التي تزود وادي الأردن وشماله بكميات كبيرة لا يمكن التخلي عنها، وخصوصاً بعد عملية سهم باشان، فبحسب الروايات التوراتية المختلفة يجب على الأقل السيطرة على جزء من شمال الأردن ووادية لكي تستكمل الجزء الرئيسي مما يسمى "إسرائيل الكبرى".

الأدلة الأثرية

سعى علماء الآثار التوراتيون إلى الكشف عن الأدلة المادية للسرديات التوراتية في فلسطين والأردن بشكل كبير، وفي سورية ولبنان أيضاً، لكن بسبب الوضع السياسي في سورية ولبنان وعدم قدرة هؤلاء على الحفر هناك فقد كانت الحفريات، أو لنقل "التفسيرات"، محدودة جداً فيهما مقارنة في فلسطين، ومن ثم الأردن، لذلك نرى ندرة بحثية في موضوع باشان في نطاق

علوم الآثار والتاريخ من قبل التوراتيين ومن حولهم من مرتزقة الأقلام العرب والعجم. لكنْ نستطيع الحديث عن الحفريات الأثرية في المنطقة الجغرافية لباشان المتخيلة وما أنتجت لنا من دلائل مادية:

1. **تل العريمة (كنيرت):** تم تحديده كموقع لمدينة كنيرت القديمة، حيث تظهر الأدلة على الاستيطان خلال العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي. كشفت الحفريات عن تحصينات ومرافق تخزين وفخار يتوافق مع الوصف التوراتي لمنطقة مزدهرة ومحصنة. وبالتالي لا يوجد أي دليل كتابي على وجود باشان أو حتى الملك عوج نفسه أو نقوش أو بقايا دمار منظم في تلك الفترة إلى الآن.
2. **أدرعي (درعا الحديثة) :** تُذكر كعاصمة لباشان في تثنية 3:10، وقد كشفت عن بقايا من العصر البرونزي والحديدي، بما في ذلك تل كبير مع أدلة على التخطيط الحضري والهياكل الدفاعية. أيضاً لم يتم العثور على أي نص أو دليل مادي يشير إلى تغيير مادي أو ثقافي أو إثني خلال هذه الفترات، مما يؤشر على عدم حصول ما ذكر في التوراة من معارك وفرض سيطرة أناس جدد على هذه المدينة.
3. **مسوحات مرتفعات الجولان:** كشفت المسوحات الواسعة في الجولان عن العديد من المستوطنات من العصر الحديدي، مما يشير إلى كثافة سكانية وإدارة مركزية. هذه الظاهرة عمت كل المنطقة ولم تظهر أي اختلالات سكانية تتعلق بوجود عنصر بشري جديد مختلف إثنياً أو ثقافياً، حتى ما يسمى "شعوب البحر" فقد أظهرت آخر الأبحاث بأنهم قبائل وجماعات بشرية محلية لم تخلق أي اختلال ثقافي، بل كانت ثقافياً جزءاً من المنطقة، وبالتالي لم يحدث أي تغيير ثقافي متعلق بالممارسات اليومية أو الدينية.
4. **سرير عوج الحديدي:** تم تفسير الإشارة التوراتية لسرير عوج (تثنية 3:11) من قبل بعض العلماء على أنه تابوت حجري أو هيكل ضخم. ومع ذلك، لم يتم العثور على أدلة أثرية قاطعة تؤكد هذا التفسير. ولم يتم العثور أيضاً على أي دليل مادي يؤشر على وجود ممارسات دفن مختلفة لهؤلاء الإسرائيليين الذين يفترض أنهم سيطروا على منطقة باشان المتخيلة، وهذا مؤشر واضح على عدم ارتباط التوراة بالواقع التاريخي من ناحية المشاهدات، أي بأن من كتب هذه التوراة كان يعرف المنطقة، ولكنه لم يؤثر فيها ولم يسيطر إلا على عقول البعض من المستشرقين وطلابهم.

في حالة باشان، كما يهودا والسامرة، لم يتم العثور على دليل مادي كتابي أو معماري أو غيره يؤشر على وجود هذه الممالك، بل، على العكس، أثبت علم الآثار بأن الاستمرار السكاني وبالتالي الثقافي كان متماسكاً لم يشهد أية انقطاعات تذكر حتى في ظل الفوضى السياسية أو الهجمات الخارجية. التغيير كان دائماً محلياً على مستوى الشعب والثقافة، ويصدق ذلك أيضاً خلال سيطرة فترات الإغريق والرومان، فعلى الرغم من سيطرتهم السياسية وتأثيرهم الثقافي الكبير في المنطقة، ظلت الثقافة المحلية واللغة وخطوط الكتابة المحلية هي السائدة والأقوى والأكثر انتشاراً في صفوف شتى الطبقات المختلفة في المنطقة.

أما علم الآثار التوراتي، والذي بدأ منذ أكثر من مئة سنة، فهو يرتكز، في الحقيقة، على عدة عوامل أعطته هذه القوة، فهو ينطلق من أرضية تاريخية أيديولوجية صهيو-مسيحية عدوانية الطابع اتجاه المنطقة، تمتلك عقيدة توسعية إحلالية بحجة الوعد الإلهي المزعوم، بالإضافة إلى القدرات المالية الكبيرة والسياسية التي مكنتها من بناء هذا الإطار بشكل منهجي وعلمي يأخذ الخيالات ويحولها إلى حقيقة مفترضة من خلال سيطرته على الأرض في فلسطين تحديداً إذ إنه يحفر هناك ويخرج ما في الأرض من بقايا مادية ويفسرها بحسب ما يراه مناسباً.

وبالرغم من وجود عدة مدارس في إطار علم الآثار التوراتي إلا أنها تدور حول تبرير وتأكيد وجود وحصول هذه الأحداث في المنطقة. بعض هذه المدارس تحاول مطابقة النص تماماً من خلال هذه الحفريات، وبعضها يحاول تأكيد الوجود، وإن كان وجوداً ضعيفاً بدوياً. "فنكلنستاين" وغيرها من التبريرات تصب جميعها في تأكيد ملكية الأرض لصالح صهيوني، ولو كان متعايشاً، المهم هو الملكية.

فالبعض يفسر الاكتشافات الأثرية والبقايا المادية بحسب النص بشكل فج، ولا يعمد إلى التحليل والتأويل المستقل، والبعض الآخر يعمد إلى الانتقائية في تفسيراته، وهذا تشويه للتاريخ فهو يعمد إلى سلخ المادة التاريخية عن السياق التاريخي. وبالتالي يُعد علم الآثار التوراتي جزءاً من الهجمة الكولونيالية على المنطقة العربية، بل هي رأس الحربة في الهجمة المعرفية لشطب التاريخ الحقيقي لنا نحن العرب أهل الدار وأصحاب الأرض، فبكل وضوح يجب الاعتراف بأن العرب لا يعرفون تاريخهم الحقيقي وبأن علينا أن نسترجع هذا التاريخ بقوة العلم والبحث.

ولكي نعيد بناء تاريخ المنطقة التي رسمت على حدودها مملكة باشان علينا الخروج من علم الآثار التوراتي بشكل كامل، وذلك من خلال الدراسات المقارنة والتي تعمد إلى البحث في سياق المناطق والثقافات في المنطقة ككل ودراسة الآراميين والعمونيين وغيرهم من جماعات سكانية محلية في المنطقة. ومن ثم تحليل النصوص التاريخية (النقوش المصرية والآشورية وغيرها) للتمييز بين ما هو حقيقي وما هو متخيل ودحض الروايات والسرديات اللاهوتية. وهذا الخروج لا يتم إلا من خلال وجود قوة حقيقة تستطيع الانطلاق بمشروع إعادة فهم تاريخنا القديم.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

هل انتهى المشروع القومي؟
ملاحظات لإعادة بناء المشروع

بشار شخاترة

بعد الزلزال السوري في الثامن من كانون الأول من العام الماضي وصعود عصابات الإسلام السياسي إلى الحكم، والإطاحة بالنظام القومي الذي كان يقوده الرئيس بشار الأسد، اجتاحت الفضاء الرقمي وعالم المنتديات الفكرية تسونامي من الأسئلة حول المشروع القومي العربي: هل انتهى هذا المشروع بغياب آخر الأنظمة القومية العربية؟ وهل كان هذا المشروع قابلاً للحياة وللتحقق على أرض الواقع من الأصل؟

وسط الصدمة التي ألمت بكثيرين وحالة النشوة التي أبدتها جماعة من السوريين وجماعة من العرب، والتي ظهر لها وكأننا أمام فتح من قبيل فتح مكة، ما دعا البعض للصلاة فيما سموها صلاة الفتح، وسط هذا المشهد عادت الأسئلة والتحليلات تملأ الدنيا عن عصر انتصار الإسلام وعودة عصر الخلافة، في مشهد محزن ومخزٍ، كأن الإسلام سقط على أسوار دمشق منذ نصف قرن، واليوم ينتصر الإسلام ويعود من جديد.

بدايةً من الظلم للإسلام وأتباعه أن نعتبر هذه العصابة الصهيو-طورانية تمثل الإسلام أو تمت له بصلة، فهؤلاء قتلة مأجورون لا يختلفون شيئاً عما فعله مجرمو الكيان الصهيوني في غزة ولبنان، هؤلاء أعداء الحياة كما اليهود لا يختلفون عنهم، شربوا من بئر الحقد والكراهية والإجرام إذا قارنت فعالهم ستجدها على ذات المذهب، ومن أبى أن ينصف غزة المظلومة المكلومة بكلمة لن يكون عوناً وستراً ومدافعاً عن الشام، هذه أمور لا تقبل التجزئة أو القسمة فهي كل واحد، إما الشام وغزة ولبنان والعراق والمغرب واليمن والجزيرة العربية، وإما كيان الاحتلال، لا خيار.

نعيد قراءة الواقع العربي الراهن لنسأل: أين هو المشروع الذي مهمته رفعة هذه الأمة ونهضتها؟ في حقيقة الأمر لدينا مشاريع ولدينا أنظمة وكيانات كل منها لديه ما يقوله للجمهور الذي يخاطبه، فالأنظمة العربية عموماً تحت المظلة الأمريكية وجميعها لا تعدو أن تكون تبعاً للسياسة الأمريكية مقابل ترسيخ هيمنتها على الشعب العربي واستمرار حالة التبعية لقاء بقائها في الحكم، وهذا المشروع أمريكي بريطاني صهيوني من حيث النتيجة وبالتالي لا يمكن القول إلا أن بقاء هذه الأنظمة وأدواتها هو عدوان على الإنسان العربي وعلى الأمة العربية كمصطلح سياسي اجتماعي .

وخارج إطار السلطة والحكم لدينا مشروع قومي عربي ضارب الجذور ومحمل بإرث نضالي تاريخي منذ مرحلة النضال في مواجهة الاستعمار التركي العثماني مروراً بمواجهة الاستعمار الأوروبي وصولاً إلى مرحلة الاستقلال بالتزامن مع مرحلة الصراع مع قاعدة الاستعمار الغربي ممثلة بالكيان الصهيوني، هذا المشروع بكافة تلاوينه بقي على ثوابت لم يحد عنها، بدءاً بأولوية تحقيق الوحدة العربية مروراً باتخاذه موقعاً وموقفاً في مواجهة الإمبريالية الأمريكية، وانحيازه للعامة من الناس على حساب البزنس والانفتاح على الغرب الرأسمالي .

وهناك مشروع إسلاموي متعدد الوجوه والمشارب، يرفع شعار الخلافة على منهاج النبوة، وأهم عناوينه السياسية "الإخوان المسلمون" والجماعات السلفية، وهذا المشروع نشأ تاريخياً في أحضان الاستعمار الأوروبي وانتعش في أحضانه، والغرب هو الممول والمتبني التاريخي لهذه القوى، لقد فوجئنا بحجم عمالة هذا التيار السياسي للغرب "ولإسرائيله" بما تجاوز ما كنا نصفه أو نعرفه عن هذا التيار، فلقد ظهرت عمالة هذا التيار ومعاداته للعروبة باسم الإسلام بعد استيلائهم على دمشق.

هل المشروع العربي انتهى بغياب آخر نظام قومي عربي، وهو نظام البعث في سورية؟

لا يمكن أن ننكر أن المشروع القومي تعرض لاستهداف ممنهج عبر عقود انتهت بتصفية وجود أنظمة حكم بعينها كانت تتبنى النهج العروبي، ولا يمكن أن ننكر أن تلك الأنظمة كانت تساهم بشكل أو بآخر في تعزيز حضور المشروع العربي، إلا إننا إن خسرنا وجود البعث في سورية والعراق وخسرنا وجود عبد الناصر وخسرنا ليبيا وتم تحييد الجزائر، فإن خسارة معركة لا يعني أننا خسرنا الحرب، وإلا فإن قبولنا بهذه النتيجة يعني حكماً بقبول الهزيمة وقبول الهيمنة الأمريكية على بلادنا وتثبيت وجود كيان الإجرام الصهيوني، وهذا لن نقبله ولن تقبله الأمة لأنه بتوقفنا عن مناهضة الإمبريالية الأمريكية فإنه إعلان وفاة هذه الأمة، إن مقاومة العدوان الغربي وأدواته الرجعية من أنظمة حكم فيها الحياة والنجاة، والاستكانة للعدوان موت محقق والثمن أفدح مما يمكن تخيله، وعليه وأمام هذه المعادلة لا يمكن قبول النتيجة التي آلت إليها نتائج الحرب، واستعادة المشروع واستعادة المبادرة هو أولى أولويات كل عروبي غيور.

أول الدروس أننا يجب ألا نستعجل النصر وألا نستعجل الهيمنة على السلطة السياسية في أي قطر قبل أن نرسخ منهجاً بنيوياً تنظيمياً يقوم على تحصين التنظيم القومي وتعزيز مناعته ومناعة كوادره وعناصره من غواية السلطة والحكم، ومن إغراء الدعة والركون إلى الاسترخاء والرضا عن النفس كلما تحقق إنجاز، نحتاج أن نبني التنظيم الذي نهذب فيه النفوس قبل بناء الكادر تنظيمياً وطليعياً، نحتاج إلى مؤمنين بالمشروع لا متسلقين أو منتفعين .

هذا المشروع هو الأولى بهذه الأمة لأنه هو الذي يحمل همومها ويشعر بوجعها ويناصب أعداءها العداوة والبغضاء، هذا المشروع لا يمكن أن يتعايش مع الرضى الغربي، وإذا فعل فقد انسلخ عن عروبته، لذا يتعين علينا ونحن نطرح الأمور بالكليات التي تحتاج إلى برامج عمل ميداني أن نصوغ عناوين رئيسية إضافة إلى ما تطرقنا له في هاتين الفقرتين، لقد ثبت أن التنظيم القومي تتسرب إليه وبصورة تلقائية الحالة المرضية لأنظمة التجزئة العربية، وإن لم تكن بالقدر الذي تعانيه الأنظمة الرجعية والتابعة للغرب إلا أن هذه الأمراض سرعان ما تبدأ بالتسلل إلى التنظيم وتبدأ الحالة الثورية النضالية للكادر وللعنصر بالتحول إلى حالة وظيفية روتينية ومن ثم تتسلل إليها أمراض الدولة والبيروقراطية إضافةً إلى الفساد الذي هو حالة ملازمة للبنية الإدارية والوظيفية، وخصوصاً في ظل دول على الشاكلة العربية تعاني من مختلف أشكال الفساد والترهل، وهذه من أخطر الأمراض التي يمكن أن تصيب التنظيمات الثورية والسياسية عموماً.

علينا أن نعيد التفكير في القاعدة الشعبية للمشروع العروبي، فالواجب أن يبذل مجهود فكري وتربوي عليها لأنها منجم كوادر وعناصر المشروع، وهي التي تمثل الضمانة والحماية للتنظيم وللمشروع، لهذا فإن الخطاب والحوار معها يقوم على بناء الثقة تحت مندرج أعلى المثل والقيم التي تستند إلى الثقة والأمانة والصدق وترسيخ قيم ومثل عليا صارمة تمثل التزاماً ووعداً من قبل التنظيم والمشروع بالنتيجة كحاكم للعلاقة بين المشروع والتنظيم والقاعدة الشعبية، حتى نخلق نوعاً من الرقابة الجماهيرية على أداء المشروع والتنظيم، كما لا يفوتنا التأكيد أن ينتهج المشروع اليوم مبدأ المحاسبة والمكاشفة وعدم المجاملة للمشروع وكوادره وترسيخ هذا النهج لدى الجماهير، كي لا يجد المشروع وقادته أنفسهم وقد انفصموا عن الواقع وعن قيم المشروع القومي ومبادئه، وليبقى مشروع الجماهير طالما أحست أنها تؤثر وتتأثر فيه، لقد كان من أكبر النقم على المشروع القومي أنه انفصل في مراحل تاريخية عن الجماهير وهذا كان من أسباب الانتكاسة.

ما سبق ليس نقداً للأنظمة القومية بقدر ما هو أخذ للعبر، فعلينا أيضاً أن نعترف أن الأنظمة القومية لم تكن تسبح في فضاء رحب من دون معوقات، فلم يكن هناك فعل إلا وكان هناك أفعال معادية تقابلها، فالحقيقة أن أمتنا لم تعش ظروفاً اعتيادية تسمح ببناء دولة أو مشروع قومي، فالأمة في مواجهة دائمة منذ قرون من الأتراك إلى الأوروبيين إلى الأمريكان والصهاينة، وأمام إمكانات العدو الهائلة علينا أن ندرك أن المعركة لم تكن متكافئة وأنها ستبقى كذلك، لهذا علينا أن نتحرر من عبء الدولة وعبء التزاماتها في مراحل بناء المشروع وصعوده وحتى في مراحل تحقيق الانتصارات إلى اللحظة التي لا تصبح بنية الدولة والتزاماتها عبئاً على المشروع القومي.

بقي أن نضيف أنه يجب على المشروع القومي سحب الذريعة الإسلاموية من أيدي أعداء المشروع، من إخوان مسلمين وسلفيين ومستخدميهم، وعليه يجب أن نتوقف عند هذه الجزئية بما يليق بالموقف الحقيقي للمشروع القومي من الإسلام ودوره التنويري، لا نهج الخرافة والظلامية الذي حملته التنظيمات الإسلاموية والأنظمة الرجعية العربية، وهذه نقطة تحتاج إلى مراجعات لكن لا بد أن يتضمنها المشروع القومي بما يليق بالعروبة والإسلام.

كلمات مشرقية عُرُوبيَّة مقارنة بأخرى بربرية

سعيد بن عبد الله الدارودي

هذا هو القسم الثالث من مشروع التنقيب عن جذور مفردات اللهجات البربرية في اللغات واللهجات العُرُوبيَّة في المشرق العربي. وبعض هذه المقارنات تنتمي للغات عروبية قديمة لم يعد أحد يتحدث بها، وبعضها للغات ولهجات عروبية تفرَّعت من تلك اللغات القديمة.

ونبدأ بكلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من اللغة الأكّادية:

في البربرية أسمرو: الحَبَل ـــ وفي الأكّادية مِرُ: الحَبَل (للمرأة خاصَّةً).

في البربرية تاووري: العَمَل والحِرْفة ـــ وفي الأكّادية أُرُّ: العَمَل والحِرْفة.

في البربرية أوداد: الوَعْل (التَّيْس الجَبَلي) ـــ وفي الأكّادية دُدُ: الكبش البري.

في البربرية تاليلت: المُساعدة ـــ وفي الأكّادية أيالُ: المُساعدة.

في البربرية ألالّي، إليّلي: الحُرُّ ـــ وفي الأكّادية إلُّ: الحُرّ .

في البربرية المُخاط: أخنون، أخلول ـــ وفي الأكّادية خينينو: المُخاط.

كلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من لغة العرب الآراميين

في البربرية يوزل: ركضَ ـــ وفي الآرامية أزل: اِنطلقَ.

في البربرية تاغلا: الشَّاة الصغيرة ـــ وفي الآرامية غل: التيس الضخم.

في البربرية أمرور: صنف من الظباء ـــ وفي الآرامية أمّور: حَمَلٌ، خروف.

في البربرية أفا، أفو: النار ـــ وفي الآرامية أفي: طبخَ، أفه: تنّور.

في البربرية تاقّايت: الحَلْق ـــ وفي الآرامية قاق: الحُنْجرة.

في البربرية أغرمي: النَّواة ـــ وفي الآرامية غِرْما: العظم.

كلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من لغة العرب الكنعانيين

في البربرية يارود: انغسلَ الشيءُ ـــ وفي الكنعانية يرد: ينزل في الماءَ.

في البربرية أكسوم: اللحم ـــ وفي الكنعانية كسم: الوجبة الاحتفالية (الوليمة).

في البربرية مِيس: الابن ـــ وفي الكنعانية مص: الابن.

في البربرية بوشير، بوشيل: الطفل ـــ وفي الكنعانية بِشر: الطفل.

في البربرية تاناوت: السفينة ـــ وفي الكنعانية أونيا: السفينة.

في البربرية أدّور: علو المنزلة ـــ وفي الكنعانية در: علو المنزلة.

كلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من لغة العرب السريان

في البربرية تورفت، تيرفت: السفينة ـــ وفي السريانية إلفو، إلفا: السفينة.

في البربرية أزل: الغُصْن ـــ وفي السريانية زالا: نبات القصب.

في البربرية أسوقي: العبد ـــ وفي السريانية واسيق: استعبد.

في البربرية أُرتي: الحديقة ـــ وفي السريانية أوريتا: الحديقة الصغيرة.

في البربرية إگيدر: طائر العُقاب ـــ وفي السريانية كودرا: طائر العنقاء.

في البربرية ساگي: كثير ـــ وفي السريانية شيگان: كثيراً.

كلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من اللغة العبرانية

في البربرية تودرت: الحياة ـــ وفي العبرانية دُر، دور: الحياة.

في البربرية إكرو: ولد الشاة عامّة ـــ وفي العبرانية كَر: الشاة السمينة.

في البربرية قصَّ الخبرَ أو القصّة: إملا ـــ وفي العبرانية مِلَّه: الكلمة.

في البربرية أشداف: الغُسْل ـــ وفي العبرانية شِطِف: الغُسْل.

في البربرية أگدود: الجماعة ـــ وفي العبرانية جِدُدُت: الجماعة، جدود: الجيش.

في البربرية تاقدّا: الكُزْبُرة ـــ وفي العبرانية جَد: الكُزْبُرة.

كلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من لغة العرب العراقيين الصابئة الذين يتكلمون المندعيّة، أو المندائية كما يُسمّيها أهلها، وهي لسان منحدر من اللغة الآرامية وما زالت حيّة إلى الآن:

في البربرية إنّا: قالَ ـــ وفي المندعية أنّا: رَدَّ، أجابَ.

في البربرية ينّاي: نظرَ ـــ وفي المندعية إين: نظرَ.

في البربرية إگن: نامَ ـــ وفي المندعية گنا: نامَ.

في البربرية ألا: ورقُ الشجر ـــ وفي المندعية ألوا: الورقة من ورق الشجر.

في البربرية أگناو: الأخرس ـــ وفي المندعية گنگا: الأخرس.

في البربرية أفوفّو: الرَّغوة ـــ وفي المندعية أوفا: الرَّغوة.

كلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من المصرية القديمة:

في البربرية أمصّاض، تامصّاطّ: الفخذ ـــ وفي المصرية القديمة ماست: فخذ، ركبة، ساق.

في البربرية تاستاوْت: الحِزام ـــ وفي المصرية القديمة سوت: الأحزمة، الأربطة.

في البربرية خأير: شارع ـــ وفي المصرية القديمة أغير: الطريق، الزقاق.

في البربرية أيُيْ: الثور ـــ وفي المصرية القديمة إوا: الثور.

في البربرية أباركاو: العجل الذي عمره من شهر إلى شهرين ـــ وفي المصرية القديمة پاركا: بقرة.

في البربرية تيفييي: اللحم ـــ وفي المصرية القديمة إف: لحم، جَسَد.

كلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من لغة العرب الأجاعز، الذين يتكلمون الجَعْزية بفروعها الموجودة في الحبشة وأريتريا وبعض مناطق السودان:

في البربرية أدرار: الجَبَل ـــ وفي الجعزية تارارا: الجَبَل.

في البربرية: الإصبع: طاد (لهجة أيت وارين) ـــ وفي الجعزية: طات: الإصبع.

في البربرية تيلّيت: البِنْت ـــ وفي الجعزية (لهجة التگرايت) ـــ وَلَتْ: بنت، لَوَلَتْ: البنت.

في البربرية: أناتراب: السَّريع ـــ وفي الجعزية (لهجة التگرايت) مترابي: الإنسان المتسرع المندفع.

في البربرية أفورّاي: السَّرَطان ـــ وفي الجعزية فرا: الطاعون.

كلمات من لهجات العرب البَرْبَر مقارنة بكلمات من اللغة اليمنية القديمة

في البربرية أشقّار: أنف الجبل المُشرف على قاع ـــ وفي اللغة اليمنية القديمة شقر: القِمَّة.

في البربرية تيفييي: اللحم ـــ وفي اللغة اليمنية القديمة أفي: نوع من الطعام.

في البربرية ألس: الرَّجُل ـــ وفي اللغة اليمنية القديمة أنس: الرَّجُل.

في البربرية أزرف: الفِضَّة ـــ وفي اللغة اليمنية القديمة صرف: الفِضَّة الخالصة.

في البربرية أُرغ: الذَّهَب ـــ وفي اللغة اليمنية القديمة ورق: الذَّهَب.

في البربرية أميدي: الصديق ـــ وفي اللغة اليمنية القديمة مود: الصديق.

المصادر والمراجع:

* أسماء من التراث السرياني / الآشوري ـ د. إبراهيم لحدو
* الأكديَّة العربية ـ د.علي فهمي خشيم ـ مركز الحضارة العربية.
* البرهان على عروبة اللغة المصرية القديمة ـ علي فهمي خشيم
* القاموس المحيط ـ الفيروز آبادي.
* القاموس المندائي ـ خلف عبد ربه وخالد كامل عودة.
* اللسان الأكَّادي (موجز في تاريخ اللغة الأكادية وقواعدها) د. عيد مرعي
* اللغة اليمنية القديمة ـ د. فاروق إسماعيل.
* المرجع السبلاوي في الكلام المصراوي ـ د. ناصر سَبْلَة.
* المعجم الأمازيغي الوظيفي ـ د. مبارك الأرضي.
* المعجم العربي الأمازيغي ـ محمد شفيق .
* قاموس اللغة الأكدية / العربية ـ علي ياسين الجبوري.
* معجم المفردات الآرامية القديمة ـ د. سليمان بن عبد الرحمن الذييب.
* ملامح في فقه اللهجات العربية ـ د. محمد بهجت قبيسي.
* ملتقى اللغتين العِبْرية والعَرَبية (الجزء الأول) ـ مراد فرج.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

الصفحة الثقافية: مستقبل الدراما في سورية "الجديدة"

طالب جميل

بعد مرور أكثر من عقدين على تفوق الدراما السورية على نظيراتها العربية، رغم بعض التراجع الذي حدث بفعل الحرب وتأثيرها، تستعد هذه الصناعة السورية المتميزة لدخول مرحلة جديدة في ضوء المستجدات التي حدثت في البلاد بعد 2024/12/8، وترتب عليها دخول الدولة في مرحلة جديدة إثر سقوطها في يد الجماعات المسلحة المدعومة من دول إقليمية ووصولها للحكم.

لقد وصلت الدراما السورية خلال الفترة الماضية وتحت رعاية النظام السابق بقيادة الرئيس بشار الأسد إلى مكانة مرموقة فاستطاعت أن تبرز قوتها وجماليتها من خلال قدرتها على تقديم أفكار جديدة ومضامين متنوعة في مختلف أنواع الدراما (فانتازيا، تاريخية، بيئة شامية، اجتماعية، كوميدية، وغيرها) بشكل يعكس جودة في النصوص وبراعة في التمثيل والإخراج وحرفية عالية في التصوير وتقديم صورة بصرية خلابة من خلال تصوير بعض الأعمال في أماكن حقيقية تعكس واقع الحال والخروج من أسر الإستديوهات، والتخلص من عقدة البطل المطلق للعمل وتعزيز ظاهرة البطولة الجماعية.

ونتيجة لهذا التطور صار المنتج الدرامي السوري مطلوباً للقنوات والمحطات الفضائية ومفضلاً على غيره من المنتجات، لدرجة أصبحت فيها بعض الأعمال خالدة وتعرض حتى يومنا هذا على المحطات وتلاقي رواجاً وتفاعلاً كبيراً رغم مرور سنوات طويلة على إنتاجها مثل (مرايا، بقعة ضوء، الفصول الأربعة، ذكريات الزمن القادم، الانتظار، ثلاثية الأندلس، الزير سالم، التغريبة الفلسطينية، نهاية رجل شجاع، ضيعة ضايعة، أهل الغرام، الخربة، الندم).

ولأن النجاح والتفوق لا يكون بالصدفة، وحتى لو حدث بالصدفة فإنه لا يستمر، لكن نجاح الدراما السورية تحقق نتيجة تضافر جهود كبيرة كان للدولة الفضل الأكبر فيها، فالدولة ساهمت في تذليل الصعوبات من أجل نجاح هذه الصناعة من خلال ما يلي:-

- وضع القوانين والتشريعات التي تصب في مصلحة الفن عموماً والدراما خصوصاً.
- تسويق الأعمال السورية على القنوات والمحطات الرسمية التابعة للدولة من خلال شرائها وعرضها بشكل مستمر.
- فتح باب العمل للشركات الإنتاجية ومنحها التراخيص اللازمة للعمل وتسهيل عملها.
- تعاون المؤسسات الرسمية في مختلف المحافظات السورية من وزارات وأجهزة أمنية ومؤسسات مجتمع مدني ومساهمتها في تسهيل تصوير الأعمال الدرامية ويلاحظ في غالبية الأعمال وفي شارة النهاية تحديداً الجهات الرسمية التي يتم شكرها نتيجة مساهمتها في إنجاز العمل.
- الاستفادة من الخبرات العاملة في المؤسسات الرسمية خاصة الفنيين والعاملين في الديكور والمونتاج وبعض التخصصات الأخرى.
- الاستفادة من مدرّسي وخريجي المعهد العالي للفنون المسرحية الذين يتولون إدارة وبطولة الأعمال الدرامية، والمعهد طبعاً من مؤسسات الدولة التي تتولى تعليم وتخريج الفنانين في سورية بتكاليف منخفضة.
- تخفيف القيود الرقابية على النصوص مما ساهم في رفع سوية بعض الأعمال وزيادة الجرأة في الطرح السياسي والنقد لسياسات الدولة ومظاهر الفساد وتغول بعض المسؤولين، ولولا هذه المساحة من الحرية لما ظهرت أعمال جريئة مثل (غزلان في غابة الذئاب، والولادة من الخاصرة، سنعود بعد قليل، بقعة ضوء، مرايا، قلم حمرة، كسر عظم).
- دعم إنتاج أعمال درامية تتناول تاريخ سورية، منذ القدم، وحتى مرحلة الاستقلال والوحدة مع مصر، مروراً بفترة الاحتلال العثماني، ركزت على كفاح السوريين ضد المستعمرين مثل (أخوة التراب، حمام القيشاني، العبابيد، الحصرم الشامي، خان الحرير).
- دعم إنتاج أعمال درامية تتناول قضية كل العرب وهي قضية فلسطين مثل (أنا القدس، عز الدين القسام، عائد إلى حيفا، التغريبة الفلسطينية).
- حرص الدولة بأن يكون الفن في سورية بشكل عام ملتزماً ومسؤولاً تجاه القضايا الوطنية، باعتباره صناعة للفكر ومسؤولية مجتمعية ومنوط به نقل القيم الوطنية والأخلاقية والإنسانية وقيم التسامح إلى الجمهور وتعزيز الحالات المجتمعية والثقافية المميزة.
- دعم الدولة لنقابة الفنانيين مادياً ومعنوياً من خلال المساهمة في تحسين واقع العاملين في المجالات الفنية المختلفة.

لذلك، ومهما بلغت درجة العداء للنظام السابق في سورية، فلا يمكن إنكار أن المرحلة الذهبية التي مرت على الدراما السورية كانت في عهد هذا النظام، وفي كنف أجهزة ومؤسسات الدولة الموجودة في تلك الحقبة، مع العلم أن الدراما كصناعة هي عبارة عن قطاع واسع يؤمن الرزق والعيش الكريم لعدد كبير من العاملين فيها ولعائلاتهم.

لكن الواقع اليوم يبدو مختلفاً بعد رحيل النظام واستلام الجماعات المسلحة دفة قيادة الدولة السورية، فمن الواضح جداً أن هذه الجماعات معادية أصلاً لفكرة الفن والدليل الممارسات التي تقوم بها مثل هدم التماثيل وبعض المعالم التاريخية، وتعيين مسؤولين في الدولة ممن يحملون الفكر الديني المتشدد، والتشهير ببعض الفنانين الذين كانت تربطهم علاقات مع أركان النظام السابق، وحملات التطهير في مختلف المحافظات، وغيرها من الممارسات غير العقلانية التي لا تبشر بخير.

يبدو المشهد خلال الفترة القادمة قاتماً والمؤشرات ليست مبشرة، فإذا كانت الزمرة الحاكمة أو صاحبة القرار لا تؤمن بحق أبناء الطوائف الأخرى بالعيش بأمان وكرامة فكيف لها أن تؤمن بأهمية الفن وهي لا تراه إلا من المحرمات التي تفسد المجتمع وتنشر الفاحشة، وبالتالي فإن احتمالية ازدهار الفنون تبدو شبه مستحيلة لأن الدراما تحديداً تحتاج إلى مساحة واسعة من الحرية، ولا يمكن لها أن تعمل او تزدهر في بيئة ظلامية.

أما في حال استمرار عجلة الدراما في العمل سيتوجه صنّاعها "الجدد" إلى إنتاج أعمال يكون الهدف منها الإساءة للنظام السابق واتهامه بأنه المسؤول عن كل المصائب التي حلت بسورية والمنطقة العربية على نمط مسلسل "ابتسم أيها الجنرال" الذي تم تمويله من قبل جهات معادية للدولة السورية ونظامها وتم عرضه على بعض المحطات الداعمة لخراب سورية، كما حدث في مصر بعد تولي السادات الحكم، حيث تم توجيه أغلب الأعمال السنيمائية في حينها لإدانة فترة جمال عبد الناصر وتحميله المسؤولية عن القمع والفساد وضياع الأراضي العربية.

يقول نيتشه: "لقد اخترعنا الفن كي لا نموت من الحقيقة"، والحقيقة المميتة اليوم أن الفن في سورية معرض للاندثار وأن هذا التاريخ الفني الطويل الذي أنجز عبر عدة أجيال معرّض للإبادة، وأن المخزون المعرفي والثقافي الذي تراكم عبر سنوات طويلة قد يتم هدمه وتحطيمه مثل آثار تدمر التاريخية.

قصيدة العدد: هنا باقون/ موسى شعيب

هنا باقون كالأزلِ
نشدّ جذورَنا لجذورِنا الأُولِ
نقبّل شوكَ هذي الأرض بالمقلِ
أما خُلقتْ سوى الأفواه للقُبلِ؟
هنا باقون كالأزل...

هنا باقون مثل الصخر لن نبرحْ

وإن يُهدم لنا بيتٌ

وإنْ نُشنقْ وإنْ نُذبحْ

فهذي الريحُ موّالٌ لنا يصدحْ

وهذا الزرعُ أطفالٌ لنا تمرحْ

هنا باقون مثل الصخرِ لنْ نبرحْ

نهاجرُ؟ كيف؟

يا للذل والحيفِ

سنونوةٌ إذا عادت إلى السقفِ

تعشعش فيه أولَ هجمة الصيفِ

ستلعنُنا إذا لم تجد طفلاً

يقوم بواجب الضيفِ

سنونوةٌ إذا عادت إلى السقفِ

وتلعنُنا كرومُ التين والصبّار والعنبِ

ودربُ الوعر حين يتوقُ للحطبِ

ويا للعار إنْ سألتْ عن السببِ

بيادرُنا إذاً ستموت من عتبِ

وتلعنُنا كرومُ التين والصّبار والعنبِ

هنا باقون كالأزلِ

كصخرِ جبالنا المشحون بالأملِ

كزهرِ كرومنا الخَضِلِ

بأحذيةٍ، بأيدينا صنعناها

سنسحق غاصباً بالنصر تيّاها

وبالمعولْ، ستحيانا ونحياها

ولن نرحلْ

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

هنا باقون لن نبرحْ

لكي تفرحْ

سنونوةٌ إذا عادت الى السقفِ

ويزهو الكرم في الصيفِ

في مشهد تقشعر له الأبدان، غصت طرق الجنوب وغزة بمشهد العائدين إلى الديار، طوفان بشري هائل أعلن النصر المدوي، وإذ تراءت صور الشهداء في ثنايا كل قلب، وتجاوز الحزن حدود الذات ليصبح شعلة من الأمل، تحول كل عائد إلى رمز للمقاومة، إلى مشروع، إلى وعد بأن البقاء على هذه الأرض هو الخيار الوحيد، هذه الأرض ليست مجرد مكان، بل هي الهوية والتاريخ، الحاضر والمستقبل، ولو لم يبقَ فيها شيء، تظل في أعيننا، حرفياً، كل شيء. "هنا باقون كالأزل"، قصيدة لابن النبطية الشاعر الكبير موسى شعيب، كتبها في كانون الثاني من العام 1969م، وبقيت أنشودة لكل متشبث بأرضه وعاشق لوطنه على مر الأيام.

رسوم العدد: "سوريا الجديدة"

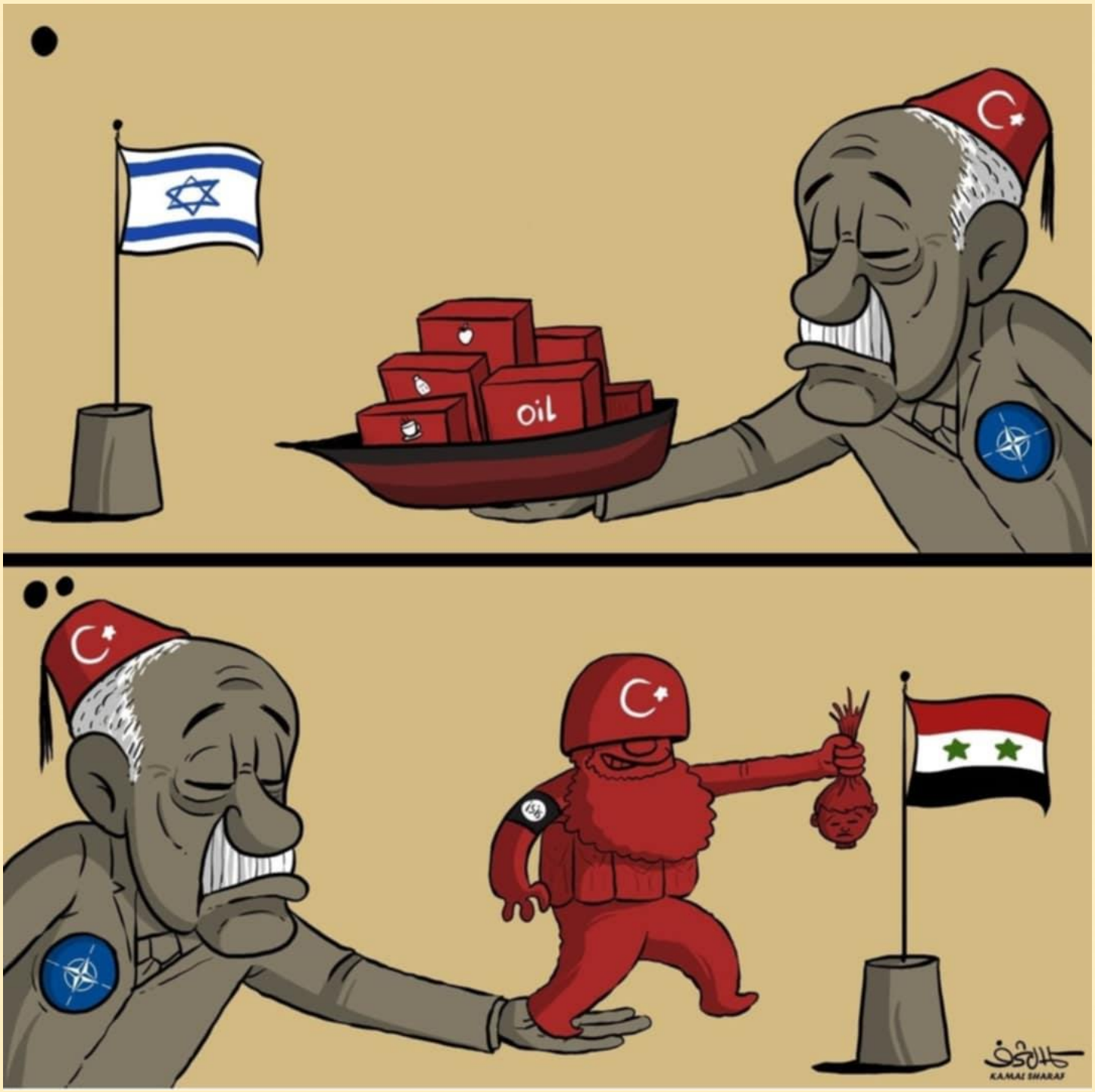
oil
KAMAL SHARAF

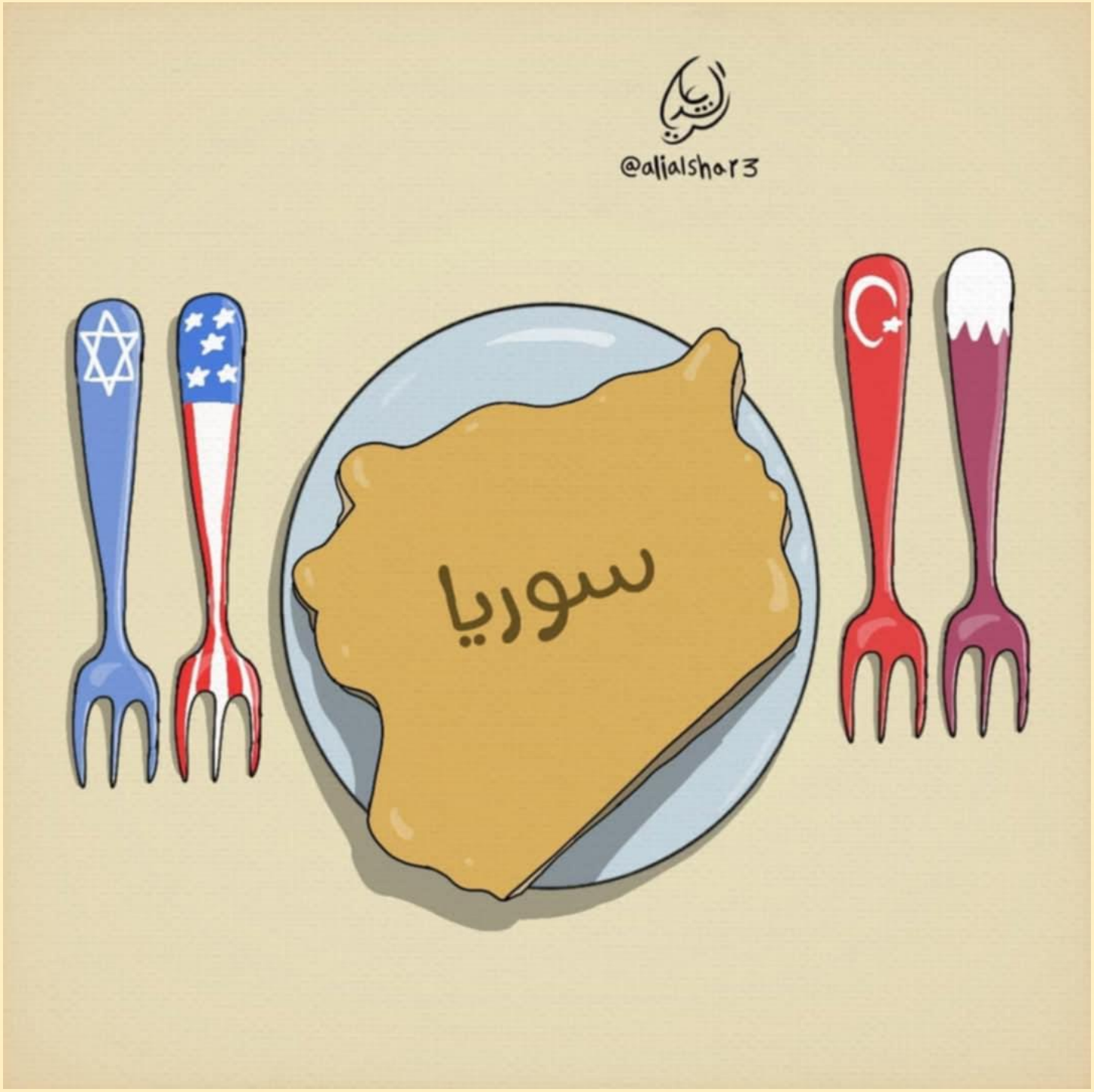
@alialshar3
سوريا

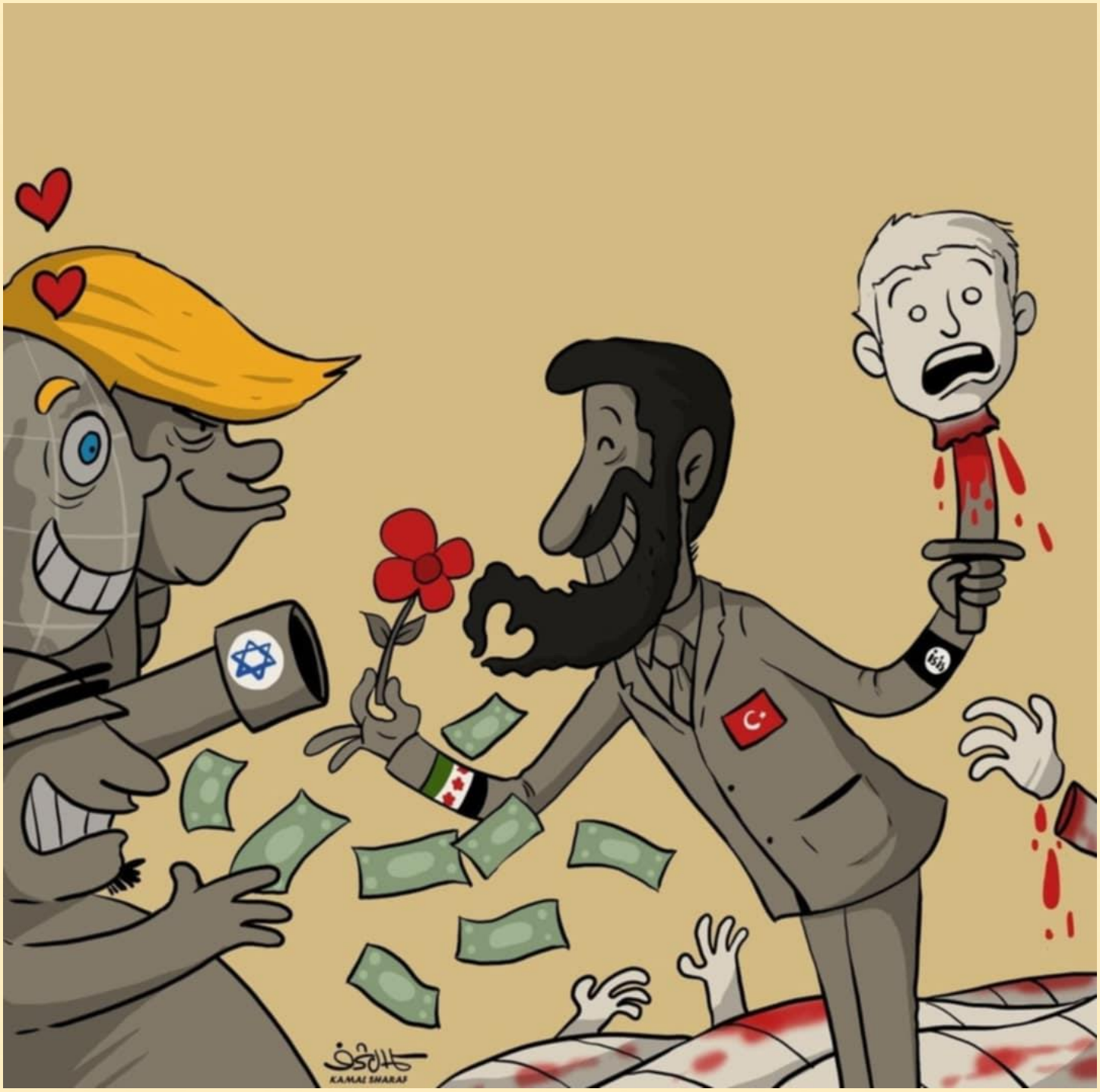
KAMAL SHARAF

رسوم العدد: غزة

مَع المُقاومة
ضِدَّ العَالَم

GAZA
غزة
KAMAL SHARAJ

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 97
01 شباط 2025

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي